د. محمد الجوادى

المسلمون والأمريكان

فى عصر جديد

الناشر
دار جهاد للنشر والتوزيع
٢٠٠٣



المسلمون والأمريكان
فى عصر جديد

الكتاب : المسلمون والأمريكان فى عصر جديد
المؤلف : د. محمد الجوادى
إشراف : محمد نوار
إخراج فني : زينب طيبى
الطبعة : الأولي ٢٠٠٣
الناشر : دار جهاد للنشر والتوزيع
٢٦ ش إسماعيل أباظة ، محطة مترو انفاق سعد زغلول، لاظوغلى
☎ : ٧٩٦٤٧٨٣

إهداء

إلى الأستاذ الدكتور كمال بشر

النحوى المبرز، واللغوى العريق، والمجمعى الكبير

محمد الجوادى



هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب كثيراً من موضوعات الساعة بجسارة فكرية وعقلية كفيلة بالنفاذ إلى جوهر المشكلات والتوجهات فى السياسة العالمية، ويطرح فيه مؤلفه تصورات فكرية متميزة ومخالفة للشائع من الأفكار المتداولة والمكررة وهو على سبيل المثال يجاهر فى الباب الأول بأن الدعوة إلى الإسلام أجدى بكثير من الدفاع عنه، كما يستعرض مبرراته للتنبؤ بأن أمريكا قد تعتنق الإسلام عن قريب، وهو يحلل الأسباب التى باعدت بين السياسات الأمريكية وبين جذب أفئدة بنى قومه سواء فى هذا الموقف من الصورة المنطبعة عن المعونة الأمريكية وما عبرت عنه رسائل أجهزة التليفونات المحمولة فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، كما يلقى الضوء على الدور الذى يلعبه الدين فى انتخابات الرياسة الأمريكية.

وعلى صعيد آخر يقرر المؤلف فى الباب الثانى مدى صعوبة الأخذ بفكرة العولمة فى مجالات تقليدية وقابلة للعالمية كالصحة والطب ويناقش الجوانب المختلفة لهذه القضية كما يستعرض الوجه الآخر لقضية التقاليد العربية الإسلامية (أو المحلية) فى سياق العولمة. كما يبلور رأيه القائل بأن النمو الإسلامى فى ماليزيا وأندونيسيا كان مستهدفاً من الأزمة الاقتصادية التى فرضت على الدول الأسيوية فى أخريات القرن العشرين، ويثنى على نجاح الضمير الفرنسى (والأوروبى) فى التصدى للنزعة العنصرية التى تبناها لوبان ودفعت به إلى مكانة متقدمة فى انتخابات الرياسة الفرنسية.

وفى الباب الثالث من الكتاب يطرح المؤلف رؤيته المستشرفة لمكانة الإسلام

والمجتمعات الإسلام والمجتمعات الإسلامية فى عصر التحالفات الجديدة، وهو يقدم نظرية متكاملة الأركان يكشف فيها رؤيته القائلة بأن العالم المعاصر قد تحول من عصر الحرب الباردة إلى عصر الحرب المتجمدة، ويقدم المؤلف مجموعة من الأدلة على صحة نظريته يأتى فى مقدمتها ما كرسته التفجيرات النووية فى الهند وباكستان قرب نهاية القرن العشرين، وانطلاقا من هذه النظرية يحبذ المؤلف دعوة قومه فى المجتمع الإسلامى إلى التوجه نحو الصين، وهو ينبه بصوت عال إلى حقيقة الهواجس التى يمكن لها أن تعوق فعالية هذا التوجه، وفى مقابل هذه الدعوة فإنه ينبه إلى حقيقة موقف الروس المعاصرين من التحالفات الجديدة، وهو يجاهر بما لمسه فى حوار مع بريماكوف من أن الروس ليسوا على استعداد لإغضاب الولايات المتحدة الأمريكية على أى مستوى من المستويات، ومع هذا فإن المؤلف حريص على أن يصور أزمة المجتمع الروسى المعاصر، مشخصا بدقة جوهر الأزمات الثلاث التى تعتصر هذا المجتمع، طارحا فى الوقت ذاته التصورات المنبئة عن إمكانية تغلب ذلك المجتمع على مثل هذه الصعوبات.. وبعد هذا يشير المؤلف إلى بعض الإيجابيات التى بدأت تأخذ طريقها لتصبح من السمات المميزة للعالم العربى مع انتقال السلطة فى خمسة من دوله (الأردن وسوريا والمغرب والبحرين وقطر) من جيل الآباء إلى جيل الأبناء، ويبدو المؤلف مستبشراً بابتعاد زعامات العالم العربى عن تكريس مشروعية وجودها وسلطانها من خلال الإيدولوجيات، وبالتزام الزعامات بالجدية على مستويات مختلفة، وبتقبلها لمبدأ تقاسم الأدوار فى التفوق العصرى، وبعملها على بلورة الأمل فى الانتظام.

وفى الباب الرابع من الكتاب يستعرض المؤلف أفكاراً جديدة فيما يتعلق ببعض المشكلات التى يواجهها العالم الإسلامى وتمتد إليها أصابع النظام العالمى أو أياديه، وهو يطرح رأيه القائل بغياب دور الدبلوماسية الإسلامية فى قضية القدس وخطورة هذا الغياب، كما يحلل العوامل الحاكمة للسياسة الأمريكية تجاه العراق، والأنماط الفكرية التى تساهم فى تكوين القرار الأمريكى بخوض الحرب ضد النظام العراقى،

وفى فصلين متتاليين يقدم المؤلف وجهة نظره فى طبيعة الدور الأمريكى فى جنوب السودان، ومدى الفائدة التى جنتها الحكومة السودانية من إتاحتها الفرصة لهذا الدور، وينبه إلى المخاطر المحتملة من قيام حكومة دينية ذات توجه مذهبى أمريكى فى جنوب السودان، كما يدق جرس التنبه إلى أن المساعدات الأمريكية لجنوب السودان ستصب فى اتجاهات غير تنموية.

وفى الباب الخامس يناقش المؤلف طبيعة العلاقات الإسلامية - الإسلامية فى عصر العولمة بادئاً بالحديث عن إشكالية الدين والحرية فى إيران فى ظل نظام حكم الثورة الإسلامية، ومثنيا بالحديث عن الجوانب التى طال إهمالها فى العلاقات العربية التركية، والتجاهل المستمر للدور الذى يمكن للعرب أن يلعبوه فى حل المشكلة الكردية، وفى فصل ثالث يتأمل المؤلف فى الخطوات التى اتبعتها تونس فى هدوء من أجل استعادة الهوية الإسلامية، وفى فصل رابع يقدم نموذجاً واضح الحدود والملامح لبرنامج للتعاون الطبى المشترك بين قطرين إسلاميين، وهو نموذج قدمه من قبل وتمت الاستعانة بروحه.

❑

وعلى مدى صفحات هذا الكتاب فإن المؤلف لا ينكر حقيقة ما بدا لكثير من القراء والمثقفين، ومعهم بعض الحق، من أن العولمة أصبحت سلاحاً فى يد الولايات المتحدة الأمريكية للضغط على المسلمين وإرهابهم.. ومن سوء الحظ أن هذا الفهم ليس خاطئاً تماماً.

وهو لا ينكر أيضاً ما لاح لكثير من القراء والمثقفين، ومعهم بعض الحق، من أن العولمة ستصبح كالأمم المتحدة آلية تستطيع الولايات المتحدة من خلالها أن تنفذ أهدافها فى المناطق المختلفة من العالم، وفى المشكلات المتعددة التى تواجه العالم.

كذلك فإن المؤلف يشارك مواطنيه الرأى فى أن العولمة كانت توجها عالمياً انتهى بأن صب فى مصلحة الأغنياء من دول العالم، ويكفى للدلالة على هذا ما تضمنه تقرير البرلمان الألمانى عن «عشر سنوات من العولمة» وهو التقرير الذى عرف باسم

«تقرير فون فايتسكر»، وقد أوضح هذا التقرير أن الفجوة بين فقراء العالم وأغنيائه أصبحت سبعين مرة بعد أن كانت لا تزيد عن ثلاثين مرة قبل بدء تطبيق العولمة.

كان التبشير بالعولمة ينادى بها من أجل عالم تسوده الحرية والديمقراطية والرخاء والسلام، وينعم بمنجزات العلم والتكنولوجيا، ويحترم الكرامة الإنسانية، ويشعر بالعدالة والمساواة، ويحترم حدود الدول وعاداتها وتقاليدها وأعراقها، ويؤمن بحرية الشعوب فى اختيار نظمها، عالم تحكمه معايير واحدة متفق عليها دوليا، ويسود فيه التكامل والتآزر بين ثروات الشعوب، وحسن إداراتها واستغلالها، وتعود فيه سياسة المعيار الواحد لا المعايير المزدوجة، ويحترم الأديان والعقائد وحقوق الإنسان.

ولكن السنوات التى مضت منذ بدأ التبشير بالعولمة أثبتت أن التبشير شىء والممارسة شىء آخر حتى ليمكن القول بأن نتائج الممارسات السياسية لم تكرس إلا عكس معظم ما بشرت به العولمة.

❑

ومع كل هذا الحقائق فان المؤلف يقترح أن نفيد بأقصى ما يمكننا من العولمة بدلا من أن ننشغل فى مناقشة جدوى فكرتها ومغزاها، وهو لا ينكر ضرورة مثل هذه المناقشة، ولكنه لا يراها معطلة لنا عن أن نفرض رغباتنا ومتطلباتنا وأن نبدى آراءنا ومقترحاتنا، وهو، على عادته، يضرب مثلاً بسيطاً للمطالب التى يمكن لنا أن نسارع بطلبها فى ظل العولمة، فنحن نستخدم الفنادق، شأننا شأن البشر، ولكننا نضطر إلى حمل البوصلة أو إلى السؤال المباشر عن اتجاه القبلة على حين أن الأمر لا يكلف الفنادق شيئاً إذا هى راعت أن من بين مستخدميها مسلمون يصلون فى اتجاه معين، ومن ثم فإن عليها أن تجعل من مقوماتها وضع هذا الملصق فى كل حجرة من الحجرات الفندقية فى جميع أنحاء العالم.. لو أننا أصررنا على هذا الطلب البسيط الذى لا يكلف أى فندق إلا ما هو أقل من ربع دولار فى الحجرة الواحدة لحققنا لأنفسنا قبل أن نحقق للغير إحساسا بطبيعة العولمة التى تراعى «الجميع» على أرض «الجميع»، ولأصبح بوسعنا فى مرحلة تالية أن نفيد [على نحو اقتصادى وتجارى] من قرار الأمم

المتحدة فى ١٩٧٣ باعتبار اللغة العربية إحدى اللغات الرسمية، ولأصبحت كتالوجات كل شيء ناطقة بالعربية بالاضافة إلى اللغات التى تختارها، وليست الفائدة من مثل هذه الخطوة فائدة «استعلامية» أو «معرفية» أو «مظهرية» فحسب، ولكنها تتعدى هذا كله إلى جوانب حضارية كثيرة لاتزال تشغل بال من يفكرون فى التعاون الدولى والسلام العالمى، ومنها على سبيل المثال، مشكلة نقل التكنولوجيا التى تنحل عقدتها أول ما تنحل بانحلال عقدة اللغة. ويضرب المؤلف، مرة أخرى، مثلاً بسيطا يوضح مثل هذه الفائدة مشيراً إلى أن ترجمة الكتالوجات تخلق طبقة من المترجمين التكنولوجيين، وتضع على عاتق أهل اللغة ومجامعها مجاراة الحضارة بنفس القدر من سرعتها، وفى هذا وحده بث للحياة فى اللغة وألفاظها ومصطلحاتها، وهو يلخص هذا المعنى فى عبارة واحدة تقول إن **الحد الأدنى من مواكبة التقدم التكنولوجى يتمثل فى إيجاد اسم عربى للخطوة التكنولوجية التى تمت فى أى نطاق وأى تخـــصص**، وبوجود هذا الاسم، سواء أكان اسم ذات أم اسم معنى، يبدأ فهم التكنولوجيا، ومن ثم التفكير فى نقلها.

هذان مثلان سريعان ينبئان عن كل ما ينبغى لنا أن نفكر فيه فى اتجاه توظيف العولمة المفيدة على نحو ما نفكر فى خشية العولمة الضارة.

❑

وعلى مدى صفحات هذا الكتاب يطالع القارىء رؤية فكرية أصلية لا تردد ما هو شائع ولا ماهو جاهز أو مقولب، وإنما يستخدم المؤلف فكره وثقافته من أجل أن يقدم لقرائه ولمواطنيه زاداً فكرياً متميزاً بالأصالة والمعاصرة فى آن واحد، وهو لا ينطلق فى كل ما يراه إلا من إيمان عميق بدور الإنسان الذى استخلفه الله على هذه الأرض.

والله سبحانه وتعالى نسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم.



1

أمـــــريكا والإســـــلام

- هــل تعتنق أمريكا الإسلام؟
- الدعوة إلى الإسلام أجدى من الدفاع عنه
- لماذا فشلت أمريكا فى جذب افئدة المصريين ؟
- رسائل المحمول فـــى ١١ سبـتمبـر ٢٠٠١
- الدين وانتخابات الرئاسة الأمريكية



ليس هذا السؤال بغريب على الذين قرأوا التاريخ الإنسانى، وقد حدث أكثر من مرة أن اعتنقت الدول القوية أو الإمبراطوريات المسيطرة دينا لم يكن دينها الأصلى، وبفضل هذا الاعتناق استمرت هذه الإمبراطوريات فى موقع السيادة على الرغم من تغير دينها الرسمى، وربما كان أوضح الأمثلة على هذا ما حدث عندما اعتنق التتار الدين الإسلامى بعد حروبهم الشرسة مع دولة الخلافة الإسلامية ودويلاتها، كما أن موقف الإمبراطورية الرومانية من الديانة المسيحيه شبيه بهذا الموقف، بل إنه فى داخل الدين الواحد حدث أن تغيرت عقائد أصحاب القوة أو حدثت تحالفات بينهم وبين أصحاب الدعوة، ولعل المثل الأكثر وضوحا هو ما حدث فى نجد من تحالف بين الشيخ محمد عبد الوهاب وبين سعود الكبير.

ويبدو للمتأمل أن أمريكا بدأت تفكر فى خطوات على مثل هذا الطريق، فهى فى واقع الأمر دولة بنيت على أساس دينى، فإن لم يكن دينياً تماماً فهو أخلاقى أو قيمى على أقل تقدير، وعلى الرغم من أن المسيحية هى الديانة الأكثر انتشارا فى الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أنها ليست مسيحية واحدة، والتمايز بين الكاثوليك والبروتستانت واضح إلى حد بعيد لا تكاد العين تخطؤه أو تغفله، كما أن مكانة الدينين اليهودى والإسلامى محفوظة بأكثر من أى مكان آخر فى العالم لا يعتنق هذان الدينان فيهما

أغلبية الجماهير، وليس الدليل على هذا ببعيد، فإننا نلحظ فى الولايات المتحدة حرصاً شديداً على المجاملات البروتوكولية للمسلمين واليهود فى أعيادهم، كما نرى مؤسسات هذين الدينين قوية إلى حد بعيد، صحيح أن المؤسسات اليهودية تتفوق ولكن هذا ليس بفضل الحكومة الأمريكية أو الشعب الأمريكى بقدر ما هو بفضل المنظمات نفسها، وصحيح أن المؤسسات الإسلامية بدأت تتقوى وتثبت نفسها، ولكن هذا لم يحدث إلا بعد أن استطاعت هذه المنظمات الحضور، وإثبات الذات..

وعلى كل الأحوال فإن الحاجة إلى الدين تميز المجتمع الأمريكى على الرغم من التظاهر بالابتعاد عنه، والارتباط بالدين مرتفع فى الأداء الأمريكى عنه فى أى مكان آخر، والعملة الأمريكية لا تزال تحمل العبارة الشهيرة التى تقول: «نحن نثق بالله»، بل إن التعاليم الدينية تكاد تفرض نفسها فى كثير من مجريات الحياة الاجتماعية على نحو مدهش، فالتقاليد البيورتيانية تحظى حتى اليوم بقبول والتزام فى منطقة الشمال الشرقى من الولايات المتحدة على سبيل المثال، والفصل بين الجنسين فى الدراسة نمط أمريكى قد لا يتصور الأوروبيون حدوثه ولا الأخذ به، بل إن أمريكا هى صاحبة البدعة بإيجاد كليات جامعية للبنات فقط! وهى الفكرة التى نقلناها فى كليتى البنات (فى جامعتى عين شمس والأزهر)، ثم تفرعت كلية البنات إلى كليات تكون شبه جامعة نكتفى بتسميتها فرع البنات من جامعة الأزهر.. كما أخذ العالم العربى عن مصر هذه الفكرة التى وجدنا لها سندا فى التعليم الأمريكى العالى.

لا أحب أن أستطرد مع القارئ إلى كثير من التفصيلات، ولكنى أظن أن الصورة ، التى أريد رسمها ، قد أصبحت شبه واضحة، فأمريكا لا تعادى الدين على نحو ما فعلت الدولة السوفيتية وشبيهاتها، كما أنها لا تهمشه على نحو ما فعلت مجتمعات إسلامية معاصرة، ولا تفصل بينه وبين الحياة فصلاً تاماً على نحو ما تفعل أوروبا، لكنها تأخذ بسياسات أقرب إلى السلوك المصرى المعاصر تجاه الدين، تلجأ إليه الدولة فى كثير من الأحيان، ومع هذا فهى حريصة على أن تجعل الدين يلجأ هو الآخر إلى الدولة، ولا يستولى عليها، ولا تكون له سلطة من أى نوع على تصرفات الدولة حتى وإن تغلب على تصرفات الحكومة فى بعض الأحيان..

تأخذ أمريكا بهذا السلوك دون أن تعلن عن توجه معين تجاه الدين.. أى دين، ولكنها حريصة على أن تخرج من هذا الضباب الذى تتركه يتكون حول توجهاتها بتأكيد واضح على التمسك بالقيم الأخلاقية.

ومع هذا فإن الولايات المتحدة الأمريكية بدأت أكثر من طريق فى الاتجاه إلى الإفادة من الإسلام نفسه بعد أن بدأت دراستها له تتبلور ، وليس ببعيد أن تكون الصورة فى المرحلة القادمة قريبة من التصورات التى يوحى بها عنوان هذا الفصل ، والتى يمكن لنا أن نتأملها من خلال الفقرات التالية.

نحن نعرف أن المسيحية كديانة لا تشمل ما يشمله الإسلام من قواعد سماوية محددة للمعاملات، أو ما يعرف فى الإسلام بالشريعة، ولهذا السبب فإن أمريكا لا تجد حرجاً فى أن تفسح المجال للاجتهاد البشرى فى صياغة قوانينها، ولكنها تتمنى ، فى بعض الأحيان ، لو كان عندها ذلك الزاد التشريعى المرتبط بقوة قاهرة قادرة واجبة الاحترام والتقديس، وتجد الولايات المتحدة الأمريكية فى الإسلام ذلك الجانب التشريعى المتميز بالزخم الذى لا حدود له فتُعجب به، وتُعجب لوجوده ، ولكنها تفاجأ ببعض المسلمين يشوهون لها الصورة، ويتعمدون أن يخيفوها من الإسلام الذى يحرم الخمر، ويحرم معاملات البنوك، ويطلب من الإنسان أن يشغل نفسه بالصلاة خمس مرات فى اليوم.

ولم يزل أعداء الإسلام من المنتمين للإسلام بالاسم يصورون الإسلام على هذا النحو المزعج حتى حدثت القارعة، وبدأت أمريكا تهتم بالإسلام، وبدأت تدرسه بنفسها، فإذا هى بمعاهدها ومؤسساتها أمام صورة مختلفة عن الصورة التقريبية أو المشوهة أو الكاريكاتيرية التى رسمت للإسلام.

وها هى أمريكا من خلال معاهدها البحثية ومؤسساتها العلمية تجد فى الإسلام الحقيقى قيما واضحة الحدود والمعالم لكل الموضوعات، وإذا هى مع استمرار الانشغال بالإسلام ودراسته وتقدير مخاطره تكتشف أن ذلك الدين هو الدين الأكثر انتشارا،

والأكثر قبولا للانتصار، كما أنه هو الدين الذى يتمكن من نفوس أتباعه ويكفل توجيههم تماماً، كما أنه يكفل للدولة عناصر قوة مرتبطة به، وأنه دين ذو طيف واسع من الأتباع، وهى تكتشف أن بعض المسلمين يحلون بعض الشراب، وأن بعضهم الآخر يمارسون الغناء ويتفننون فيه، وأن بعضهم الثالث يمارسون التصوير بكل فنونه ويبدعون فيه باقتدار لا حدود له على مر القرون، وأن بعضهم الرابع يجيزون جمع الصلوات فى النهار دون حرب ودون سفر، وأن بعضهم الخامس يجيزون ويشجعون ويتفوقون فى معاملات البنوك، وأن بعضهم السادس لا يلتزمون الحجاب ولا النقاب، وأن بعضهم السابع يحلون نكاح المتعة.. وهكذا.. وهكذا.

ومع كل هذه الفروق بين المسلمين من حول أمريكا (وفى داخلها أيضا) يبقى هامش واسع للاتفاق على عبادة واحدة ورب واحد لا إله إلا هو، ونبى خاتم عليه أفضل السلام، وأركان محددة، وصوم محدد الزمن ومرتبط بالظواهر الطبيعية لا يقبل التأويل ولا التجزئة، وزكاة عن المال ذات نسبة محددة ، وذات حرية مطلقة فى مصارفها، وحج محدد بمرة واحدة فى العمر إلى مكان محدد فى زمن محدد يتكثف حتى يجتمع الحجيج جميعا فى يوم واحد لأداء الركن الأعظم.

وهكذا تكتشف أمريكا يوما بعد يوم مدى قربها من الإسلام، وتكتشف أن مصلحتها فى اعتناقه وقيادة شعوبه والاستفادة من رصيده التشريعى الضخم على نحو ما يتحول الإنسان الآن إلى شركات الكمبيوتر العملاقة العاملة فى برامج التشغيل ليفيد من مكتباتها الضخمة.

والأمر إذاً لا يعدو ، فى ظاهره ، تلبية لحاجة الإنسان إلى دين يتوافر فيه ما لا يتوافر فى غيره فى ظل حاجة ملحة إلى روحانيات تتطلبها وتبحث عنها زعمية المادية.

من ناحية أخرى فإن أمريكا بعد تحليل مستمر أوشكت على أن تكتشف قوة الروحانية فى هذا الدين، فهى ترى مدى قوة الضربات التى وجهت له دون أن تؤثر

فيه، وهى ترى مدى الطاقة الروحية التى يمد بها هذا الدين أبناءه حتى لو لم يكونوا مستوعبين له تمام الاستيعاب، وهى ترى كذلك مدى قدرة هذا الدين على الإقناع وعلى الصراع، ولأن أمريكا بطبعها وظروفها تعشق القوة وتتمنى كل ما يهيئ لها المزيد من هذه العناصر، فإنها تجد نفسها بحكم طبائع الأشياء مقبلة على هذا الدين.

❑

هذا هو التصور الذى نرى من خلاله علاقة أمريكا بالإسلام فى السنوات القليلة القادمة.

وليس الأمر بعد هذا أمر قرار سياسى أو قرار برلمانى، وليس هو خطة توضع وتنفذ على مدى سنوات، ولكنه بالطبع سيكون شيئاً آخر غير تقليدى، يحدث بدون تخطيط وإن جاء بعد دراسة وتأمل، ويحدث بدون تحديد وإن جاء بعد توقع.. وعندئذ ستتغير صورة العالم إلى صورة أخرى لا نستطيع أن نرسم ملامحها مهما أوتينا من القدرة على التنبؤ والتوقع وفهم الطبائع، وربما نقول وقتها إن الإسلام سوف يشرق مرة أخرى، ولكن من الغرب.

الدعوة إلى الإسلام أجدى من الدفاع عنه

يبدو لى أن أعداء الإسلام التقليديين يواصلون باستمرار وبازدهار نجاحهم فى وضع المسلمين فى خانة المتهم المطالب بتقديم مسوغات الدفاع عن نفسه وعن معتقداته وعن سلوكه، وإذا بالمسلمين أنفسهم (هم ومَنْ يتحيز إليهم) ينساقون أو ينزلقون أو يتدحرجون إلى الانحصار فى الدفاع عن الإسلام فى مواجهة الدعاوى التى تثار حوله وحول معتنقيه، رغم أن المقتضيات المنطقية والفكرية لا تلزم بهذا، ولا تدفع إليه، ورغم أن الدفاع عن النفس لا يتطلب مثل هذا الأسلوب، ورغم أن الاعتزاز بالإسلام وقيمه لا يتحقق عن مثل هذا الطريق، وفضلاً عن هذا فإن الانشغال فى مثل هذه الدفاعات كفيل فى حد ذاته بتقليص صورة المشاركة الطبيعية للمسلمين فى الحياة وتحويل هؤلاء المسلمين (أو المتشيعين له من بين أهله) من أناس طبيعيين وطموحين إلى متهمين ومحاصرين ومقيدين، وذلك بدون أية فائدة من ناحية، ولا أى داع من ناحية أخرى.

وربما أجدنى بحاجة إلى أن أذكر مثلاً بارزاً للردود المعبرة عن سرعة البديهة وعن جوهر الحقيقة فى الوقت ذاته قبل أن أنتقل إلى موضوع حديثى.. ذلك أنه فى الأعقاب المباشرة لأحداث ١١ سبتمبر ذهب أحد زعماء المسلمين الأمريكيين المشهورين إلى موقع الحادث، فما كان من بعض الصحفيين الموجهين إلا أن ألقوا فى

وجهه بالقول السهل: هذا ما فعله المسلمون!! وكان رده للتو وفى نفس الحظة: لقد كان هتلر مسيحيا!!

ومبلغ ظنى أن دائرة الحديث عن نبذ الإسلام للعنف لن تنتهى بإقرار هذه الحقيقة المتعلقة بنفى التلازم بين الإسلام والإرهاب، ولهذا السبب فإنى لا أستطيع أن أفهم كيف ينشغل علماء أجلاء ومفكرون كبار وأصحاب أقلام فى أن يكتبوا المقالات والفصول تلو بعضها فى فكرة نبذ الإسلام للعنف ثم ينشرونها بين المسلمين بينما هم يتحدثون عن أمر معلوم من الدين بالضرورة ، وبينما هم يتجاهلون ما هو أدعى إلى بذل الجهود من أجله .. ولكن ماذا نفعل وإغراءات الحديث على هذا النحو كثيرة ، من دعوات إلى مؤتمرات وإلى ندوات وإلى سفرات وإلى مكافآت وإلى تلميع وتستطيع .. والأمر مع هذا لا يعود تكراراً لحديث بدهى فى مجتمع ليس فى حاجة إلى سماع مثل هذا الحديث فى وقت ينوء بأثقاله ولا يرحب بالضياع.

❑

وأعود لألفت النظر إلى حقيقة مهمة لا ينبغى أن نتجاهلها ونحن نتحدث عن نبذ الإسلام للعنف وهى حقيقة **أن الإسلام لا يزال وسيظل يحتفظ بتقديسه وإعلائه لشأن فكرة الفداء والاستشهاد**، وهى الفكرة التى تحاول المجتمعات الغربية من ناحية أخرى ودون هدف واضح أن تستأصلها تماماً بحكم تنامى منظومة القيم التى تدور دعايتها فى فلك فكرة إعلاء قيمة الاستمتاع بالحياة ومباهجها.

ومع أن جوهر الفكر الإسلامى لا يعارض فى هذه الفكرة التى تدعو إلى الاستمتاع بالحياة وإنما يهذبها ويعمقها بالامتداد بالحياة نفسها إلى العالم الآخر الذى هو الأخلد والأبقى والأبدى، إلا أن بعض كتابات الحضارة الغربية لا تمل ولا تيأس من مواجهة مثل هذه الأفكار الروحانية التى لا يزال الإسلام يطرحها بوسائلها التقليدية متمثلة فى الإلحاح على الحاضر، وتصويره فى صورة «الحقيقة الوحيدة» بناء على فكرة تقديس الأمر الواقع الذى تدركه الحواس ووضعه أو تصويره على نحو يفوق بالطبع ما قد يصل إليه الخيال من تصور العالم الآخر.

وعلى الرغم من هذا كله فإن الطبيعة «الحقيقية» و«الفطرية» للنفس البشرية تمضى فى اتجاهات متعددة تستعصى فى مجمل مساراتها على أن يحيط بها إدراك الحضارة المادية أو تصورها، على حين أنها فى الوقت ذاته كثيراً ما تتلاقى فى النهاية مع التصور الذى تقدمه دعوات القيم المنتصرة للروحانيات وفى مقدمتها الإسلام.

ولهذا السبب فإنى أتصور أن المسلمين ومفكريهم مطالبون بمسلك مختلف عن المسلك الذى فضلوا اللجوء إليه فى الوقت الراهن ، وبوسعى أن ألخصه فى الفقرات التالية.

❑

أبدأ بالاشارة إلى إحدى الحقائق المهمة وهى أن القيم الإنسانية العامة (ولا نقول الإسلامية أو الروحانية) تعلى بشدة من قدر فضيلتى الإيثار وإشراك الآخرين فى السعادة والاستمتاع بما هو ممكن للجميع، وتدعو بطريقة تلقائية إلى ضرورة انتشار مثل هذه القيم وسيادتها، ويتبدى هذا المعنى واضحاً على سبيل المثال فى تعبير الإنسان عن سعادته وهو يحكى للآخرين عن استمتاعه بشىء بادئا الحديث بقوله: «ليتك كنت معى»، ولما كان الأمر كذلك، فإن هذه القيم نفسها كفيلة بأن تفرض على كل مسلم موقفا إيجابيا من دعوة الآخرين إلى أن يشاركوه السعادة والاستمتاع بما تتيحه له العقيدة الإسلامية من سمو خلقى واستقرار نفسى وهناء اجتماعى، وهو المعنى الذى يتمثل فى بساطة شديدة فى إعلاء فكرة الدعوة إلى الإسلام واعتبارها من الواجبات التى يجب على السعداء بالإسلام أن يمارسوها بإيجابية ليشركوا غيرهم فى النعمة التى أتيحت لهم باعتناقهم للإسلام أو خروجهم إلى الحياة مسلمين.

على أن هذا لا يعنى بالضرورة أن كل مَنْ يحمل لقب المسلم ملزم بهذا لأننا لا نزعم أن كل مسلم قد وصل إلى القدرة على الدعوة فضلاً عن وصوله إلى هذه المستويات المعقولة من سمو الخلق واستقرار النفس والهناء الاجتماعى، وهنا ربما يثور السؤال التقليدى: هل تعتقد أن كل مسلم مكلف بهذه الدعوة بحكم إسلامه؟ أم أنها لابد أن تقتصر على أولئك الذين حققوا هذه المستويات الخلقية والنفسية والاجتماعية بحكم

ما وصلوا إليه؟! وحققوا بالإضافة إلى هذا القدرة على التعبير عن سعادتهم واستمتاعهم، وعن تحديد السر الحقيقى فى هذه السعادة، وهذا الاستمتاع؟

بعبارة أخرى هل يمكن لنا أن نتصور أن كل المسلمين مطالبون بالدعوة إلى الإسلام على نحو ما هو متاح لهم فى ممارستهم وتصورهم؟ أم أن هذه الدعوة تظل منوطة فقط بأولئك وصلوا إلى مرحلة محددة من الانتماء لمنظومة القيم الإسلامية؟

وربما يتطرق بنا التفكير على هذا النحو إلى طرح السؤال المرتبط بمدى مشروعية قيام كل صاحب عقيدة بدعوة الآخرين إلى عقيدته.

ربما يجيب مثل هذا السؤال عن نفسه بما هو حادث على أرض الواقع، ولكن الواقع للأسف الشديد ينبئنا أن العالم الذى نعيش فيه لا يزال، حتى اليوم ، يعانى من الحساسية المفرطة تجاه سياسات التبشير، وأن هذه السياسات على الرغم من المرازنات الضخمة التى رصدت لها لم تحقق ما هو مطلوب ولا ما هو مستهدف، بل إن هذه السياسات لم تؤت ثمار نجاحها إلا حين ارتبطت بتقديم العون الاقتصادى إلى مَنْ هم فى أشد الحاجة إليه على جميع المستويات.

❑

على أن بارقة الأمل الكبير تنبئنا ، من ناحية أخرى ، أن الإقبال على اعتناق الإسلام قد صدر فى كثير من الحالات عن منطلقات مختلفة تماما، وأن هذه المنطلقات كانت لحسن الحظ فكرية وعقلية وخلقية فى المقام الأول، ولم يحدث فى عصرنا الحاضر أن اعتنقت جماعات كبيرة أو صغيرة الإسلام من أجل حاجة اقتصادية أو هدف معيشى.. بل لم يحدث خلال القرن الماضى كله أن سعى أحد إلى الإسلام من أجل تحقيق النفوذ السياسى أو الاجتماعى.. وإن كان هذا لا يمنع ما فصلنا التنبؤ به فى الفصل السابق من هذا الكتاب من إمكانية توجه أمريكا إلى إعتناق الإسلام.

وكل هذا إذا ما فهم على نحو جيد يكفل لنا أن نفهم وأن نقدر مدى القوة الكامنة فى القيم الإسلامية الكفيلة بتقديم نفسها إلى ذوى الألباب فى العصر الحاضر.

والذين يقرأون التاريخ الإسلامى يستطيعون أن يدركوا، بكل وضوح، أن الصراع المتصور بين المسلمين وبين غيرهم لن ينتهى بالقضاء على المسلمين ولا على الإسلام، ولكنه سينتهى باكتشاف الإنسانية المتفتحة فى العالم المتقدم لمدى خصوبة وثراء القيم الإسلامية، وسيعتنق هؤلاء الإسلام، وستكون معركتهم الحقيقية هى الانتصار للإسلام الحق على نمط آخر من السلوك اكتسب مسمى الإسلام بدون وجه حق.

❑

وعندئذ فلربما تكون **نهاية التاريخ متمثلة فى الصراع بين إسلام حقيقى تقدمى وبين جهالات قديمة أو حديثة حملت اسم الإسلام وظنته من حقها وحدها!**

ومع أن العصر الذى سيشهد هذا الصراع قادم لاريب فيه، فإن بإمكان المسلمين المتنورين الإسراع به ليكون لهم شرف المحاولة فى صنعه ولا نقول فى فرضه، ولتكون لهم السعادة المتمثلة فى أن يعيشوه.

وكل ما يمكننى أن أقوله فى هذا المجال إن **الدعوة الحقيقية إلى الإسلام أسهل بكثير من الدفاع الملفق منه**، هذا فضلاً عن أنها أجدى بكثير من هذا الدفاع.. أجدى على الإسلام، وأجدى قبل هذا على الإنسانية كلها بما فيها بالطبع مَنْ يصنفون أنفسهم أعداء للإسلام وللمسلمين بل وللإسلاميين.

والله غالب على أمره.

يعتز المصريون بمترو الأنفاق ومشاركة فرنسا فيه، وكذلك بمستشفى عين شمس التخصصى، وقصر العينى الجديد، ويعتزون بقاعة المؤتمرات الكبرى وإهداء الصين لها، ويعتزون بدار الأوبرا هدية من اليابان، وكذلك بمستشفى الأطفال اليابانى، وبكلية التمريض فى جامعة القاهرة التى أنجزت اليابان مؤسساتها، وببانوراما حرب أكتوبر ويعتبرونها هدية كبرى من كوريا، وبنفق الصرف الصحى فى القاهرة ويعتبرون المشروع هدية ثمينة من بريطانيا، كما يعتزون بتجهيز ألمانيا لمكتبة مبارك الكبرى ولغيرها من المكتبات.. لكنهم يبحثون عن مؤسسة أمريكية شبيهة بهذه المؤسسات فلا يجدون شيئاً ظاهراً للعيان يصور لهم روح المحبة بين الشعبين على الرغم من أن المصريين يعجبون بأمريكا من خلال السينما وغير السينما.

ويحدث هذا كله على الرغم من أن المعونة الأمريكية لمصر تقدر بمبلغ كبير سنويا قد لا يعنى المصريين أن يكون ملياراً أو عشرة ولكنهم يعرفون أنه مبلغ كبير وكفى، وعلى الرغم من أن هذه المعونة مستمرة منذ أكثر من عشرين عاما، ولكنها للأسف الشديد صورت فى أذهان المصريين ، والمثقفين منهم بخاصة، على أنها لا تنفق إلا وفقا لشروط أمريكية على أشياء تبدو لمعظم المصريين وكأنها غير مثمرة على الإطلاق، وذلك من قبيل ما يسمى بالتدريب ، وسنضرب على هذا مثلاً يبدو

عمومياً ولكنه كفيل بتقريب الصورة على نحو ما هى فى أذهان المصريين ففى منح التدريب المهنى هذه يتدرب «**غير المختص**» على «**شىء لن يؤديه**»، وربما لا يؤدى ولن يؤدى فى مصر، لكنه مع ذلك «**وهو غير مختص**» يتلقى مقابلا لتدريبه كما ينفق مقابل آخر على المدربين وعلى المشرفين على التدريب، وعلى مديرى التدريب، وعلى برامج مطبوعة للتدريب، وعلى نفقات إقامة وإعاشة المتدرب.. وهكذا، ويصل تدريب أى فرد مصرى فى موازنة المعونة الأمريكية لمدة أسبوع إلى ما يوازى مرتبه «المصرى» طوال عشر سنوات بلا أدنى مبالغة، وصحيح أن بعض الفنادق المصرية وبعض المطاعم المصرية وبعض الشخصيات المصرية قد تستفيد من هذا الذى لا يمكن وصفه فى ظل ظروفنا إلا بأنه نوع من السفه، ولكن الحقيقة ، مع ذلك ، أنها استفادات وقتية واستثنائية.

❑

وعلى الرغم من هذا فإن معظم الذين يسوغون عمل المعونة على هذا النحو يصورون التدريب على أنه مشكلة مصر الكبرى، وأنه لا ينقص مصر غير التدريب ، وأن التدريب وحده هو الكفيل برفع مستوى الأداء ومن ثم برفع قيمة الإنتاج ومستواه وعائده .. وهذا حق لو أن التدريب وجه إلى وظائف ذات جدوى أو لوجودها فائدة ما، ولكنه يوجه فى غالب الأمر إلى وظائف هى نفسها وهمية المهمة، ووهمية الوجود.

على أن الأخطر من هذا أن التدريب الموجه إلى غرض محدود ومحدد لا يمكن له أن يرقى بأسلوب المتدرب فيما يتعلق بممارسته لمهنته ولا لوظيفته ولا لإنسانيته، لأنه كما نعرف تدريب محدود المدة وموجه إلى جوانب مهنية فحسب، وهو يقدم لمتلقى التدريب بجرعات ضخمة فى وقت محدود على طريقة البوفيه المفتوح.

وينتشر هذا الأسلوب الأمريكى فى التدريب فى كثير من المجالات من تنظيم الأسرة إلى تطوير التعليم إلى مشروعات إدارة المستشفيات واسترداد نفقات العلاج إلى

تنمية أو تطوير أو تفعيل المجتمع المدنى.... دون أن تظهر له أية نتيجة فى الأداء العام لأنه يظل متناثراً ومحدوداً وصورياً.

ورغم ضخامة الإنفاق فإنه لا يؤدى ما كانت تحققه سياسة إيفاد الموظفين النابهين إلى المجتمعات الغربية لتطوير فكرهم ولإطلاعهم على الجديد والمستحدث وعلى أساليب الحضارة ، وهى سياسة ناجحة لم تكن تتطلب من النفقات ما يصرف الآن على التدريب «الأمريكى».

ومع هذا فإن أحداً لا يستطيع أن يوجه أمريكا إلى خطورة تبنيها لمنهج الاستمرار فى هذا الأسلوب الذى لا يفيدها من ناحية، ولا يفيد مصر من ناحية أخرى، وإنما هو على النقيض من هذا يجلب كثيرا من الانتقاد الدائم لأسلوب تنموى عقيم فى وطن لايزال يحتاج كل جهد ممكن من أجل التنمية الحقيقية والملحة.

❑

ويتصل بهذا المعنى الأسلوب الذى تباشر به إدارات المعونة الأمريكية تنفيذها لسياساتها فى إنفاق أموال المعونة الأمريكية، ومن المدهش أننا قد نفاجأ بأن بعض ما فى هذا الأسلوب كان بمثابة السبب الجوهرى لأزمات أوشكت على تهديد صحة المجتمع المصرى مؤخراً، ولم يحدث هذا التهديد من فراغ، وإنما لأن برامج التدريب والتحسين الأمريكية لم تلتفت إلى القضية الجوهرية فى إطارها الكلى، وإنما تناولتها كما ألمحنا فى إطارات متناثرة.

وسنرى من التفصيلات التى نعرضها فى الفقرات التالية أن النتيجة الحتمية للأسلوب الأمريكى فى تناول المشكلات هى أن تنشأ مشكلات أكبر لم توضع فى الحسبان، والأمر فى هذا شبيه بتدريب الطلاب فى مدرسة ثانوية محلية على لعبة الكرة الطائرة، وتكثيف هذا التدريب من أجل الحصول على بطولة، بينما الملعب الوحيد المتاح لتدريبهم يقع فى وسط المدرسة تماما، كما هو الحال الذى نعرفه فى المدارس الثانوية المحلية، ومن ثم فإن أسبوعا واحدا من التدريب بعد الظهر يكفل

تكسير كل زجاج المدرسة، وأسبوعا ثانيا فى الصباح يكفل تعطيل المدرسة والدراسة تماما.

ويكفينى من أجل توضيح عقم برامج المعونة الأمريكية ـ على سبيل المثال ـ أن أشير إلى هذا النموذج الذى قدمه محرر اقتصادى بارز هو الأستاذ محمود المراغى فى مقال له فى الأهرام ٣٠ يوليو ٢٠٠٢ حيث يقول:

«آخر برامج المعونة الأمريكية، بدأ أو يبدأ هذا الأسبوع، وهو مخصص لتدريب الكوادر اللازمة لإدارة مخلفات المواد الصلبة فى محافظتين هما: القاهرة والقليوبية، وقد خصصت المعونة الأمريكية لهذه البرامج نحو ١,٥ مليون دولار».

نتوقف هنا لنشير إلى أن هذا المبلغ يوازى ثمانية ملايين جنيه مصرى هى إجمالى مرتبات الموظفين فى هيئة قومية على مدى عام !!

ونعود لنقرأ التفصيلات:

«وتم إسناد الإشراف على العملية لمعهد التعليم الدولى بواشنطن الذى طرح بدوره المناقصة اللازمة لبيوت الخبرة التى يمكن أن تباشر عملية التدريب فتقدمت أربع شركات، ثلاث منها مصريات،و الرابعة شركة أمريكية».

«وبدأت إجراءات التحكيم ففازت إحدى الشركات المصرية (التى تعمل معها شركة أمريكية وأخرى بريطانية من الباطن) لكن رئاسة المعهد لم توافق على ترسية المناقصة وانتدبت جهة أخرى للتحكيم، ثم جهة ثالثة، وفى المرات الثلاث تفوز الشركة المصرية، وهنا برز شرط لم تتضمنه المناقصة وهو: شرط الجنسية الأمريكية للأعمال التى يزيد حجمها على ٢٥٠ ألف دولار، ويجرى الاعتذار للشركة المصرية وتقديم شركة أمريكية سبق أن أوقفت وزارة الإسكان التعامل معها، وسبق أن

شاركت فى أعمال أخرى مشابهة مما يمنعها من الاشتراك فى هذه المناقصة».

«والتفاصيل بعد ذلك كثيرة، لكن إصرار المعهد المنوط به الإشراف على المناقصة كان واضحا، وهو ترسية العطاء على الشركة الأمريكية، مما نقل القضية إلى ثلاث جهات أمريكية هى إدارة المعونة فى مصر التى لم تقدم ما يصحح الوضع، ومكتب المفتش العام الذى يتابع أعمال الخارج من مقره فى بودابست، ثم - وهو الأهم - الكونجرس الأمريكى الذى لجأ له الشريك الأمريكى فى المناقصة الذى خاطب نائبه فى الكونجرس للإحاطة والتصرف».

«صاحب ذلك عقوبة الشركة المصرية التى تضررت بسحب مشروعين للتدريب بعد أن تم إسنادها فى وقت سابق».

«وصاحب الأمر أيضا استقالة اثنين ممن يقومون بأعمال استشارية كنوع من الاحتجاج على بعض التصرفات».

ثم يبلور الأستاذ المراغى جانبا أخر مهماً من القضية ، ويقول:

«المفاجأة التى قد لا يعلمها محافظ القاهرة أو القليوبية أن تكاليف المتدرب تصل - كما تردد - إلى ٩٣٢٠ جنيها للفرد الواحد نظير أربعة أيام تدريب، وربما تكون المفاجأة الثانية هى أن يكون بعض المتدربين من مشرفى النظافة وليسوا من المستهدفين بالتدريب القانونى والإدارى والفنى لمثل هذه المشروعات».

❑

على هذا النحو، الذى لخص به الأستاذ المراغى قصة من قصص كثيرة، نرى نموذجا لضياع مؤكد لمبلغ ثمانية ملايين من الجنيهات المصرية، تكفل - على سبيل المثال - إقامة خمسة عشرمدفن صحى لهذه النفايات فى مناطق بعيدة تماما عن

العمران حتى لا يحدث ما حدث فى الساحل الشمالى، وتفجر هذا الأسبوع حين اكتشفت الصحافة أن الدفن غير النموذجي للنفايات كان السبب فى إصابة الساحل الشمالى بذباب مقاوم لكل المبيدات الحشرية.

ولنقرأ على سبيل المثال بعض تفصيلات أو جوانب المشكلة التى تواجهها الإسكندرية والساحل الشمالى كما لخصها فى جريدة الأخبار هذا الأسبوع محرر البيئة الشهير الأستاذ محمد عبدالمقصود:

«المدفن الآمن للمخلفات الصلبة بالكيلو ٥٣ ببرج العرب مخالف للمعايير التى وضعتها اللجنة الوزارية الخاصة بإدارة المخلفات الصلبة، لم يمر سوى أشهر قليلة على تشغيله إلا وانتشرت الروائح الكريهة، وهاجمت جحافل الذباب المتوحش المقيمين بالقرى السياحية بالساحل الشمالى ونغصت عليهم استمتاعهم بالمصيف».

«لقد وضعت اللجنة الوزارية لإدارة المخلفات الصلبة ١٢ معيارا لاختيار المرافق الصحية للقمامة وإنشائها، أهمها البعد ٤ كيلو مترات عن الطرق الرئيسية،والبعد كيلومترا عن شبكة الطرق الفرعية ومناطق الآبار الجوفية، و٢ كيلومتر عن المطارات والموانئ، و١٠ كيلومترات عن المناطق الأثرية، وكيلومترا عن شبكة الوديان ومناطق الفوالق الطبيعية، وأن تجرى دراسة لتقييم الأثر البيئى للموقع على أن يتم الاختيار النهائى للموقع بالتنسيق مع هيئة التخطيط العمرانى والمحليات بعد إعداد دراسة تفصيلية للآثار البيئية نتيجة إنشاء المدفن الصحى بالمناطق المقترحة وتقييمها لاختيار أفضلها، وأن تكون التربة ذات نفاذية ضعيفة للمياه حتى لا تختلط المياه الملوثة بالخزانات الجوفية».

«ولكن موقع المدفن الصحى لا تنطبق عليه هذه الشروط، فالمدفن ملاصق للمناطق السكنية بالساحل الشمالى ولا يبعد ٤ كيلومترات عنها،

كمـا أنه قـريب جـدا من شـبكة الطرق الرئيـسيـة - طريق إسكندرية - مطروح السـريع، رغم أن المعـايير تتطلب بعده ١٠ كيلومـتـرات عن الطرق الرئيسية، ويقع فى واد قريب من الشاطئ لا تفصله سوى هضبة غير مـرتفـعة، الأمـر الذى أدى إلى مـهـاجـمـة الذباب لسكان القرى السياحية القريبة من الموقع الذى أنشئ فيه المدفن، ورغم ذلك أقرت وزيرة البيئة السابقة نادية مكرم عبيد هذا الموقع ولم يتابع وزير البيئة الحـالى مـراحل تشـغيل المدفن لتـلافى المشكلات التى تطرأ فى أثناء التشغيل».

«أما لماذا توالد الذباب بكثرة فى موقع المدفن «الآمن»، فالسر يكمن فى عدم إنشاء محطة لتجميع المياه الناتجة عن دفن القمامة، ويتم تجميع المياه فى حوض مكشوف ثم تسحب بعد ذلك عن طريق العربات إلى محطات الصرف الصحى، فإذا ما تأخر نقل المياه تظهر الرائحة الكريهة التى تعم المكان وتنقلها الرياح إلى سكان القرى السياحية مع الذباب المفترس الذى لا تصلح معه المبيدات الحشرية العادية».

❏

هنا نتساءل أما كان الأجدر بالمعونة الأمريكية أن توجه فى الإنفاق على انشاء المدافن الصحية ، وقد رأينا فى فقرة سابقة أن المبلغ المنصرف فى الإنفاق على التدريب فى برنامج واحد [متصل تمام الاتصال بموضوع المشكلة الخطرة] كان كفيلاً بهذا التمويل ؟

....

ليست المعونة الأمريكية وحدها هى المسئولة عن هذا العبث ، ولكن أمريكا هى التى تفقد فرصاً كثيرة كفيلة بأن يتذكرها الإنسان المصرى بالخير.

قبل أن تصدر صحف الصباح كان المواطنون العرب قد تبادلوا على أجهزة المحمول [الشخصية بالطبع] مئات الصيغ من الرسائل التى وصلت بينهم وبن ما حدث فى ١١ سبتمبر .. ربما كان متبادلو الرسائل لا يذكرون فى ذلك اليوم أن هذا الحدث قد وقع فى ١١ سبتمبر، وذلك على عادة العقل البشرى الذى لا يذكر تاريخ الحدث باليوم والشهر إلا بعد وقوع الحدث بأيام، ولكن الرسائل اشتملت على كثير من المعانى والدلالات التى أبدعها الوجدان الشعبى والثقافى خلال ساعات قليلة من وقوع الحدث.

بالطبع لم يكن المواطنون العرب قد تصوروا أن الحدث قد انتهى ، ولم يكن ممكناً لهم أن يتصوروا هذا المعنى، ذلك أن شاشات التليفزيون كلها كانت تحمل هامشا يشير إلى أن أمريكا فى حالة حرب، وأن الحرب مستمرة، وأن ما يظهر من أحداث على الشاشة ليس إلا حلقات فى الحرب التى بدأت ، ولكن بالنسبة للانفعال فإن الأمر فى نظر هؤلاء المتابعين لم يكن بحاجة إلى أن ينتهى الحدث إنما يكفيهم أنه بدأ، وهكذا **أصبحت بداية الحدث هى «الموضوع» المفضل على الرغم من أن أحداً لم يتصور كيف تكون نهايته**، بل ربما لم ينشغل أصحاب الرسائل فى التفكير فى طبيعة النهاية.

كانت بداية الحدث فى حد ذاتها قد فجرت كثيراً من المعانى التى حملتها الرسائل التليفونية القصيرة، فها هى أمريكا تنهار ، وها هو أكبر مركز تجارى عالمى يتحول فى لمح البصر إلى أثر بعد عين ، وها هو البنتاجون يفقد أحد أدواره [**المعمـارية**] وبالتالى يفقد أحد أدواره **الاستراتيجية** فى سهولة وسرعة .. وها هى أمريكا القوية القادرة تتحول إلى هدف **سهل الإصابة** بل **سهل الاختراق**.

رسائل المحمول لم تتوقف عند أى حد من حدود الخيال العلمى أو غير العلمى ولكنها تعدت كل الحدود لتعبر عن مكنونات النفس البشرية التى عانت طوال عهود مستمرة من غطرسة القوة الأمريكية التى ساندت اعتداءات متكررة على شعب عربى قدر له أن تكون أرضه مطمحاً ومطمعاً، ومهما كانت الدوافع الاستراتيجية أو السياسية التى جعلت الولايات المتحدة الأمريكية تشجع السياسات التى أخذت بها فإن المواطن العربى البسيط لم يكن سعيداً على الإطلاق بهذا الذى يتوالى من ظلم يسانده القادر ويقع الظلم على شعب ليس بالأعزل تماما ولكنه أقرب ما يكون إلى الأعزل بالفعل.

كانت عقلية المواطن العربى تتمنى للولايات المتحدة الأمريكية وللشعب الأمريكى وللإدارة الأمريكية أن تصل إلى إدراك حقيقة مهمة وهى أن **هناك شعوبا كثيرة تتألم** وتعبر عن هذا الألم بقدر ما من الشماتة لما حدث وتوجه هذه الشماتة لمن تعتقد أنه ساعد الظالم على ظلمه..

من حسن الحظ أن هذه الرسالة قد وصلت إلى الإدارة الأمريكية، ومن ثم صرح إداورد ووكر بأنه يود أن ينبه الشعوب الأخرى إلى خطورة انتشار ظاهرة الشماتة فى أحداث ١١ سبتمبر، وإلى أن الشعب الأمريكى لن يكون سعيداً بهذه الشماتة بالطبع.. على الطرف الأخر كان أصحاب الرسائل سعداء بهذا الذى حققوه من وصول رسالتهم إلى الطرف الذى لابد أن ينتبه إلى الحقيقة مهما كانت القوة كفيلة له بالحماية والقوة.

كانت أمريكا تتمتع بنوع بارز من أنواع **«المنعة»** أو **الحماية الجيوبوليتيكة** بفضل بعدها عن مسرح الأحداث والأزمات والحروب وبفضل حماية طبيعية جغرافية

يوفرها المحيطان اللذان يحيطان بها فإذا بالقواعد تتغير تماما، وإذا هجمات إرهابية فردية تهدد قدس الأقداس فى العاصمتين الأمريكتين الكبريين: عاصمة المال والاقتصاد، وعاصمة الدولة الفيدرالية.

كان النجاح الذى تمكن المحمول من تحقيقه أنه مثل وسيلة جديدة من **وسائل (أو وسائط) الاتصال العولمى** التى لا تخضع فى ضبط إيقاعها وتعبيرها لأى قدر من السلطة الحكومية أو المؤسسية على عكس كل وسائل الإعلام الحكومية وغير الحكومية، ذلك أنه حتى مؤسسات الإعلام الخاصة والمملوكة لغير الحكومات تخضع لسياسات وتوجهات مسبقة ومحددة، ولا يمكن لها أن تنطلق فى التعبير عن المشاعر النفسية الانفعالية والوقتية على نحو ما توفره خدمات الرسائل القصيرة على المحمول أو على شبكة الإنترنت.

فى نفس اللحظة التى كانت الشبكات التليفزيونة العالمية توالى نشر ما حدث كانت الجماهير فى أماكن كثيرة من العالم العربى توالى هى الأخرى نشر توقعاتها أو بالأحرى تمنياتها لما يجب أن يحدث، ولم تتوقف الرسائل بالطبع على توقع انهيارات كثيرة فى مواضع أخرى من رموز القوة فى الولايات المتحدة الأمريكية وولاياتها الكثيرة والكبيرة، ولكن التوقعات شملت أيضا سعر صرف الدولار، وحاملات الطائرات الأمريكية الدائرة فى أنحاء العالم، ومعها بالطبع الأسطول السادس الأمريكى.

بعض المحللين السياسيين العرب كانوا متشاءمين أو بالأحرى متحسبين من موجة رسائل المحمول العربية فى أعقاب أحداث سبتمبر ٢٠٠١، وكان للتحسب عندهم أكثر من سبب:

السـبب الأول: أن هذه الرسائل كانت فى النهاية تصب فى مصلحة الاتهام القائل بإمكان أن يكون أسامة بن لادن أو أمثاله من تنظيمات عربية أو إسلامية هو المسئول عن هذه الأحداث.. فليس من الحكمة أن يسارع العرب بأنفسهم بتوريط بعضهم فى المسئولية عن عمل ليس مشروعا، حتى وإن كان مثيراً للإعجاب الفولكلورى.

السبب الثانى : أن هذه الرسائل كانت كفيلة بخلق نوع من **«الإحباط التالى»** فهى قد تعبر عن حالة من النشوة وعن قدر من السعادة ولكن الإفراط فى النشوة يقود إلى قدر من أحلام اليقظة غير القابلة للتحقيق، وبعدها يصبح أصحاب الرسائل أنفسهم عرضة للإحباط لأن ما توقعوه أو ما تمنوه لم يتحقق على نحو أو آخر.

السبب الثالث : أن الأيدى الصهيونية الخبيثة لن تترك هذه الفرصة لكى تثبت على العرب أنهم ينحازون بدون مبرر ضد **مصالح** الشعب الأمريكى فإن لم يكن فضد **مشاعر** الشعب الأمريكى ، ولا يمكن لأحد أياً من كان أن ينفى أن مثل هذه الرسائل كانت ضد مشاعر الشعب الأمريكى بالفعل!

❑

فى النهاية كانت رسائل المحمول بمثابة مشاركة شعبية فى أحداث ٢٠٠١/٩/١١ ولكنها فى المقابل لعبت أكثر من دور فى مواقع الحدث نفسه.

الدور الأول : أنها استخدمت من داخل الطائرات لتنبيه القواعد الأرضية إلى بعض ما حدث على متن الطائرات ،وعلى الرغم من أن كل هذه الاتصالات لم تفلح فى إنقاذ أى شىء ، ولا فى الإخبار بطبيعة ما حدث، إلا أنها مثلت من النهاية مصدراً لبعض المعلومات أو البيانات التى أفادت بعض جهات التحقيق.

الدور الثانى : أنها استخدمت من قبل أبطال الحدث فى إتمام الاتصالات التى وضعت اللمسات النهائية على الترتيبات التى تمكنت فى النهاية من إتمام الحدث على نحو ما حدث.

الدور الثالث : أنها مكنت الإدارة الأمريكية نفسها من سرعة الإنفعال بالحدث وسرعة تنفيذ ردود الفعل التى استجابت بها الإدارة الأمريكية لما حدث مهما كانت هذه الاستجابة بطيئة (فى نظر البعض) أو سريعة (فى نظر البعض الأخر) أو انفعالية (فى وجهة نظر العموم).

الدين في انتخابات الرئاسة الأمريكية(*)

نحن نعرف أن الولايات المتحدة الأمريكية دولة علمانية ما في ذلك شك، لكننا جميعا نعرف أيضا أن العملة الأمريكية تحمل كما أشرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب ، شعارا يكاد أن يكون إسلاميا في أصله وهو «نحن نثق في الله».

ونحن نعرف أيضا أن السياسة الأمريكية لا تُعنى إلا بالمصلحة، سواء على المستوى القريب أو البعيد، ولكننا عرفنا أيضا من واقع التاريخ الذي مر أمام أعيننا وعشناه أن المصلحة كثيرا ما تتعلق باحترام الدين أو الخضوع له، أو إمضاء تعاليمه وتعليمات الذين يدينون به.

وعلى مدى الانتخابات الأمريكية المتكررة كانت هناك مجموعة ثوابت تتعلق بأصوات الجماعات العرقية المختلفة، وربما لا نعرف أن الرؤساء الديمقراطيين يرتبطون بالكاثوليكية ويفوزون بأصوات الكاثوليك، بل إن هذه القاعدة تمتد في تأثيرها إلى الأقلية الأسبانية على سبيل المثال (وهي بالمنطق كاثوليكية) وهي كبرى الأقليات في الولايات المتحدة، وتبلغ أصواتها حوالي ٥٪ من أصوات الناخبين الأمريكيين.

(*) نشرت فكرة هذا الفصل في مقال في جريدة أخبار اليوم (٢ سبتمبر ٢٠٠٠) قبيل الانتخابات الرياسية الأمريكية التي أجريت عام ٢٠٠٠.

وفى المقابل إن هناك ارتباطا تقليديا بين البروتستانت والحزب الجمهورى.

وربما لاحظ المتابعون للحملتين الانتخابيتين الأمريكيتين أن المرشحين الرئيسين بوش وآل جور، قد حرصا على أن يضمنا كلمتيهما الرئيسيتين فقرة باللغة الأسبانية، بكل ما يرمز له هذا المعنى، وبكل ما ينم عنه قبل ذلك.

ونحن نظن أن المجتمع الأمريكى كله يتحدث اللغة الإنجليزية الأمريكية، لكننا ربما نفاجأ حين نعلم أن اللغة الإنجليزية ليست هى اللغة الأولى لأكثر من عشرين مليون مواطن أمريكى، فهناك تسعة ملايين لغتهم الأولى الأسبانية، وهناك ستة ملايين لغتهم الأولى هى الألمانية، وخمسة ملايين لغتهم الأولى الإيطالية، وهكذا.. ولا يتعارض هذا أبدا ولن يتعارض أبدا مع وحدة المجتمع الأمريكى وتماسكه، لأن هذه **الوحدة استقرت علي أساس فكرة المصلحة** ووضع هذا النص فى قانون الجنسية وفى دستور الولايات المتحدة منذ زمن بعيد.

وعلى الرغم من هذا فإن المتأمركين المصريين يجدون لذة فى سعيهم التخريبى إلى إثارة كل ما هو ممكن، وكل ما هو غير ممكن فيما يتعلق بأقليات يزعمونها ويؤلفونها ويخلقونها خلقا من أجل تدمير مجتمعهم بفيروس الأقليات.. نسأل الله لهم الهداية، ولوطننا وشعبنا الحفظ والصون الذى منّ علينا به الله من قديم الزمان.

❑

وكما أن هناك ثوابت فى الانتخابات الأمريكية الرئاسية والتوزع التقليدى لأصوات الطوائف بين الحزبين الكبيرين فإن هناك متغيرات، ومنها على سبيل المثال أصوات اليهود، وقد فزع كثيرون منا حين أعلن «آل جور» عن اختيار السيناتور اليهودى ليبرمان بمثابة نائب له فى انتخابات الرياسة الأمريكية، وبقدر ما فزع الكثيرون فقد وجدت فى هذه النقمة الظاهرة مصدر نعمة كبرى، ذلك أنه لو كان الرئيس الأمريكى فى أى وقت من الأعوام الخمسين الماضية يهوديا لكانت مشكلة فلسطين بما فيها القدس قد وصلت إلى الحل، ذلك أن اليهودى يعرف وجه الحق فى

القضية تماما وهو يساوم قدر ما يساوم بينما هو فى قرارة نفسه مدرك للثوابت، ولهذا فإن بوسعه أن يتخلى عند اللزوم عن كل ما يدعيه حقا وهو يعرف أنه باطل، أما غير اليهودى مهما كان شجاعا فإنه يظل خائفا من اليهود ومزايدة غيره (من المتشيعين لليهود والخائفين منهم) عليه من أجل اليهود.

وهكذا فإنى لا أعتقد أن وجود يهودى فى موقع مؤثر فى حكومة الولايات المتحدة يفيد إسرائيل ويضير القضية الفلسطينية (أو العربية)، لكنى أعتقد فى العكس، ودليلى على هذا فى هنرى كيسنجر نفسه وهو صهيونى واضح الصهيونية، غير منكر لها، ومع هذا فقد كان أسرع الساسة الأمريكيين فى إزالة أوهام إسرائيل فيما يتعلق بما وضعت عليه أيديها من الأراضى العربية...

أقول هذا بوضوح وبساطة، وأعرف أن كل القراء يدركون هذه الحقيقة التى أصبحت الآن واضحة كالشمس، مهما زعم كيسنجر (أو زعم له الحاقدون على السادات من الفيروسات الصحفية المعروفة التى أذاقتنا وشربتنا الضلال والهلاك طيلة عهد كامل) من أنه حقق لإسرائيل ما لم يحققه غيره، وأنه استطاع إنقاذها من الدمار فى عام ١٩٧٣، وأنه أخذ السادات «على حجره» على حد تعبيره، أو أن السادات اندفع من تلقاء نفسه للجلوس «على حجره».

وفى إطار هذه الفكرة فإنه يكفينى أن أنبه الأقلام المتشائمة من «ليبرمان» إلى أن لهذا السيناتور اليهودى على سبيل المثال موقف واضح يجاهر بالتحفظ على نقل السفارة الأمريكية إلى القدس.

❑

من ناحية أخرى فإنه ليس من شك أن الوعى العربى والإسلامى فى الولايات المتحدة الأمريكية آخذ فى الاطراد.

ولست أحب أن أردد نظرات المتشائمين الذين ينظرون إلى موقف أهلينا فى الولايات المتحدة الأمريكية فيما مضى من عصور ومن انتخابات، لكنى أكاد أبشر

بأنه بدءاً من انتخابات الدورة القادمة فى ٢٠٠٤ سيكون للصوت العربى وللصوت الإسلامى تأثير محسوس، وسيخطب ود العرب والمسلمين بطريقة واضحة.

ولست أحب أن أتطرق إلى الأسباب التى أخرت تصاعد وتنامى قيمة العرب والمسلمين فى المجتمع الأمريكى، لكنى مع هذا لا أستطيع أن أمنع نفسى من أن أذكر للقراء أن صورة الضجيج غير المحسوب فى الخطاب السياسى المصرى فى الستينيات وأصداء هذه الصورة كانت قد أساءت بالفعل إلى صورة المصرى فى العالم المتحضر، بما كان متوقعا أن يمتد لقرن كامل من الزمان لولا أن الله سلم.

ولست أحب أن ألوم أحدا بقدر ما أود أن أفخر وأعتز بكل الجهود الإسلامية والعربية التى تضافرت خلال العقدين الأخيرين من الزمان حتى طورت صورتنا فى الوجدان الغربى، وهى جهود موفقة رغم صعوبة الهدف، ورغم ظننا أنها تباطأت أو لم تصل إلى ما كان يجب أن تصل إليه.

❑

ولست أتمنى على الله إلا أن يهيئ العقل للمجموعات التى تسمى نفسها «أقباط الهجر» من أمرها رشدا يكفل لها النقد الفعال بدلا من نغمة النقمة المتزايدة، سواء على الماضى أو على الحاضر أو على المستقبل.

وظنى أن النقمة على المستقبل مما لا يليق بمتدين أو مثقف.

أما النقمة على الحاضر فهى مما لا يليق بقادر أو مصلح.

وظنى كذلك أن الروح التى تحكم كل أقباط ومسلمى المهجر بمن فيهم هؤلاء وغيرهم تتسم بالثقافة والتدين والقدرة والإصلاح..

أما النقمة على الماضى فأمرها موكول إلى العظة (يقوم بها المتدينون) والمغفرة (يجود علينا بها الله جل فى علاه).

2

الإسلام فى مواجهة العولمة

- التقاليد الإسلامية فى عصر العولمة
- العولمة فى الطب والصحة
- هل النمو الإسلامى فى ماليزيا هو المستهدف؟
- فرنسا ومحنة العنصرية الجديدة

للمسلمين أعياد دينية ، ولكل وطن من أوطانهم أعياده الوطنية ، ولكثير من المجتمعات المحلية أعيادها المحلية أيضا.. ومع هذا فإن المسلمين بحكم معيشتهم فى وسط العالم لا يمانعون فى الاحتفال بكثير من الأعياد الغربية حتى ما هو مبتكر منها كعيد الحب على سبيل المثال.

ومع هذا فإن بعض المجتمعات الإسلامية تصبغ هذه الأعياد بما تراه كفيلا بترويج فكرة العيد نفسه.

وعلى الرغم من هذا التوافق الإسلامى مع «العالمية» أو مع روح العولمة فإن الصحافة الغربية منذ وقوع أحداث ١١ سبتمبر لا تكف عند كل فرصة متاحة عن الحديث عن عدم قابلية العرب والمسلمين للتكيف مع كثير من تيارات العولمة الخفيفة، ومن ثم يتصاعد الحديث عن صعوبة تقبلهم لروح العولمة نفسها، ومن ثم تصاغ النتائج التى تصورهم خارج «التاريخ القادم» من ناحية، أو وهم يرفضون سياقه من ناحية أخرى.

ومن المنطقى - وإن بدا هذا غريبا على فهمنا بعض الشىء - أن هذه الملاحظة

سترتبط بأى صورة من صور الرفض العربى (فى منطقة ما ، وفى زمن ما) لتقليد أمريكى أياً ما كان هذا التقليد ، وسترتبط ظاهرة الانتقاد بظاهرة الرفض وتفسيرها على النحو الأكثر بعداً عن الحقيقة أكثر مما ترتبط بفهمها فى إطار أن يكون هناك تقليد عربى مناقض أو مناف أو معاكس لما هو موجود فى العالم الغربى..

بعبارة أخرى فإنه فى هذه الظروف تبرز حقيقة أن الحديث عن الفشل فى المجاراة يتمتع بالفرصة المتاحة فى أن يتفوق ويتغلب على الحديث الطبيعى والمعتاد عن اختلاف أو تفاوت الطباع والعادات.

وعلى سبيل المثال فإننا لم نفاجأ بالصحافة الأمريكية منذ شهور وهى مشغولة أو مهمومة بقضية ما تسميه «منع عيد الحب فى المملكة العربية السعودية»، ويتكرر العزف على هذا الانتقاد بصور متتابعة وبتصويرات عامدة إلى إظهار التعجب من ناحية، والحسرة على ما يصور على أنه من حقوق الإنسان من ناحية أخرى، مع أن الأمر الطبيعى، بحكم المهنة، هو أن تنصرف الصحافة الاستطلاعية وتنشغل بتغطية وعرض ومناقشة وتأمل أنماط الحياة العاطفية التى تحفل بها الحياة الإنسانية والنشاط الطبيعى فى مثل هذه البيئة التى شاء لها القدر أن يخلد تراثها الإنسانى فى العواطف المشبوبة فى صورة فن رفيع هو فن الشعر العربى الذى أتيح له الخلود على مدى السنوات، بل وازداد شيوعه وذيوعه.

❑

هكذا يصبح المرء المحايد (من مثقفى الصين أو الهند على سبيل المثال) مذهولا حين يجد مثل هذا الانتقاد صادراً عن هؤلاء الذين امتهنوا العواطف الإنسانية وحولوها قدر إمكانهم إلى آليات وتيرية ، وماديات مجردة، ويجد مثل هذا المرء المحايد هؤلاء الصحفيين الداعين إلى العولمة أو الأمركة وهم يتعالون بلا مبرر على

شعوب تسامت بالحب فى كل صوره، وخلدته بأرقى الفنون، بل وضحت من أجله بالأرواح والحيوات وبكل ما تملك.

ويعجب الإنسان حين يستعيد ما وعته ذاكرته من آثار الأدب الأوروبى حيث يجد أن أسلاف الغربيين المعاصرين كانوا معجبين أشد الإعجاب بالتقاليد الشرقية للحب، وكانوا يعتبرونها بمثابة «منتهى الأمل» «وقمة الإعجاب»، وكان تقديرهم هذا يدفعهم إلى إثراء تجاربهم الإنسانية على نحو رفيع من خلال التأمل والمحاكاة والتطعيم.. أما اليوم فإن بعض الغربيين المعاصرين فى ظل إحساس خاطئ بالاستعلاء بدأوا يشغلون أنفسهم ويشغلوننا معهم فى التفكير المتكرر وفى البحث الجاد عن مبررات أياً ما كانت للهجوم على عدم السماح بالاحتفال بعيد الحب أو... للسعادة بانتشار الاحتفال بعيد الحب.

❑

ومع هذا فإن هناك عددا من الملاحظات المهمة التى يجدر بنا أن نشير إليها فى ظل هذه الأحاديث القابلة للتكرار:

(١) الملحوظة الأولى هى أن أسلافنا المعاصرين ، من رجال الصحافة والفكر ، كانوا فيما يبدون يتحسبون لهذا اليوم فإذا بهم فى تقليدهم للأعياد الغربية يختارون أياما مغايرة للأيام التى يحتفل بها الغرب بهذه المناسبات، فعيد العمال فى مصر يوافق أول مايو بينما هو فى الولايات المتحدة فى شهر آخر، وكذلك الحال فى أعياد كثيرة منها أعياد الأم، والطفولة، بل وعيد الحب نفسه، وقد اختار له المغفور له الأستاذ مصطفى أمين يوما فى شهر نوفمبر بينما هو فى العالم الغربى فى شهر فبراير.

(٢) إن اختيار أيام الأعياد فى المجتمع العربى خضع أيضا للمحسوبية ولبعض التوجهات السياسية الفجة، وعلى سبيل المثال فقد اختير يوم عيد الطفولة ليكون

هو ميلاد الرئيس جمال عبد الناصر الذى بدأ الاحتفال بعيد الطفولة فى عهده، ومن الطريف أن أحمد لطفى السيد ولد فى نفس اليوم ولكن أحدا لم يكن على استعداد لأن يذكر مثل هذه الحقيقة فى يوم عيد الطفولة، مع أنها كانت كفيلة بتدعيم اختيار هذا اليوم كعيد للطفولة، وبقائه فى نفس التاريخ إلى ما بعد مرحلة عبدالناصر، ولكن أحدا من الذين يكشفون اهتمامهم بالحاضر لا يعطى اهتماما مماثلا بالمستقبل.

(٣) إن المقتضيات (والخطط) الأيديولوجية نفسها كانت تراعى **فكرة التوفيق بين الاحتفالات الأممية وبين النزعات الوطنية**، وليس أدل على هذا من أن الحركة الشيوعية الدولية قد أرضت طموح الشباب المصرى المنضم لها بأن اختارت ليوم الطلاب العالمى أحد الأيام المهمة فى وجدان الحركة الطلابية المصرية فى الأربعينيات، وكان هذا الاختيار يعزز ثقة أبناء هذه الحركة فى أدائهم،وفى الوقت ذاته يعزز ثقة هؤلاء فى تقدير هؤلاء «الأيديولوجيين الأجانب» أو «العالميين» لجهادهم الوطنى.

(٤) مع هذا كله فإن أحداً من الذين بدأوا يثيرون هواجس الأمركة والعولمة تجاه تقبل مجتمعات الشرق أو الإسلام للروح الجديدة تغافلوا عن أهم الملحوظات فى هذا المجال وهى ملحوظة بلغ عمرها حوالى ألفى عام، أقصد تلك المرتبطة بوجود تاريخين لعيد الميلاد الجديد، أحدهما قبل الاحتفال برأس السنة بأيام، والآخر بعدها بأيام، بينما يعتقد غير المعنيين بهذين الاحتفالين من غير المنتمين للمسيحية أن يوم رأس السنة نفسه هو الأولى بأن يكون اليوم المخصص للاحتفال بهذه المناسبة..

ولهم فى هذا منطقهم الواضح بالطبع.

وفى جميع الأحوال فإنه يصبح من المسلم به أن على المجتمعات الشرقية أن تفكر بجدية فى أن تقدم كل ما يصور تقاليدها ويعبرعنها فى صورة واضحة المدلول محملة بالمعنى ومحاطة بالاعتزاز بها، داعية الآخرين إلى أن يأخذوا هم أيضا بها ويستفيدوا منها على نحو يكفل مزيدا من الانطلاق إلى آفاق إنسانية رحبة تفيد من تجارب زمنية ممتدة، وفى هذا الصدد فإن فى وسع مفكرينا من ذوى الاتصال بالحضارة الغربية أن يتبنوا الدعوة إلى تعميم الاحتفال بعيد الأضحى المبارك باعتباره رمزاً متميزاً لمعلم مهم من معالم حياة أبى الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه أفضل الصلاة والسلام الذى تجتمع عنده الديانات السماوية الثلاث.

العولمة فى الطب والصحة

«تظل العولمة فى الطب صعبة التحقيق على الرغم من أن الطب كان ولايزال أكثر المجالات الإنسانية التى أمكن تحقيق نجاح عولمى فيها، ربما بعد الإعلام مباشرة، وربما قبله... وليس أدل على هذا الزعم من أن كل العالم يستعمل الأسبرين والبنسلين والسلفا حتى وهو يحارب بعضه بعضا».

يبدو لبعض الناس ومعهم الحق، أن الطب هو أكثر النشاطات الإنسانية ترحيبا بالعولمة.. لكن يبدو لى أن هذا نوع من الوهم الكبير.

يحكى أن طبيبا مسلما عظيم الشأن ألف كتابا مرجعا فى الطب، فجعل عنوانه «أمراض الأغنياء وأمراض الفقراء»، لا يعنينا العنوان وإنما تعنينا الفكرة فى أن الغنى فى حد ذاته يكون عاملا مشجعا على انتشار بعض الأمراض فى طبقات الأغنياء، وكذلك يكون الفقر.

ولعل المثل البارز فى هذا الصدد هو مرض النقرس الذى تزداد فيه نسبة حمض

البوليك ويصبح المصاب بهذا المرض فى حاجة إلى الإقلال من اللحوم الحمراء على وجه خاص وتعاطى مواد كفيلة بعلاج هذا الحمض (الكولشسين) ويسمى هذا المرض فى أوساط كثيرة بمرض الملوك.

المثل البارز فى الناحية الأخرى هو مرض فقر الدم الأنيميا حيث ينتشر فى المجتمعات والعائلات الأقرب إلى الفقر.

وليس من شك أن تأثير البيئة نفسها فى انتشار كثير من الأمرض شىء أساسى ومعترف به من قبل الأطباء جميعا، بل والناس العاديين. ومن الأمثلة على هذا الأمراض المنتشرة عن طريق العدوى بالطفيليات المختلفة، وهى أمراض تخلو منها المجتمعات المتقدمة. كما أن انتشار الحمى الروماتيزمية لا يحدث إلا فى بيئات معينة حيث الرطوبة والظلام والفقر.. إلخ.

❑

ليس هذا موضوعنا بالتحديد، وربما أن موضوعنا بالتحديد هو ما غير هذا بالضبط: أى كيف يمكن أن يكون هناك عامل مشترك بين كل جوانب الصحة، بصرف النظر عن البيئة.

بعبارة أخرى هل يمكن تعميم أنماط صحية على مستوى العالم على النحو الذى يمكن فيه تعميم أنماط إعلامية أو ثقافية أو تجارية أو سلوكية؟!!

الجواب سهل.. وربما هو سهل جدا، لكن التنفيذ صعب.. وصعب جدا.

وسنبدأ بالجانب الأسهل وهو تجربة العالم الحديث فى مجال الدواء، وسنكون حريصين على تجريد الفكرة بقدر الإمكان حتى تنجو الفكرة نفسها من أسر الحالات الخاصة والأوضاع المتميزة.

ولنبدأ بأكثر الأدوية استعمالا وهو عقار الأسبرين، نحن نعلم أنه اكتشف فى إحدى

البلدان، وأنه طور فى غيرها، وأنه استخدم على نطاق واسع فى غير هذه وتلك، وأنه الآن يصنع فى كل مكان وتحت أسماء مختلفة، وأنه فى القطر الواحد من أقطار العالم يوجد أكثر من مصنع (أو بالأدق أكثر من خط إنتاج) للأسبرين، وفى مصر على سبيل المثال يوجد الريفو، والألكسوبرين، والأسكين.. إلخ.

ما شأن العولمة بمثل هذا العقار؟

السؤال بسيط ولكن إجاباته متعددة الأنماط:

- النمط الأول: لو أن إحدى الشركات العالمية عابرة القارات متعددة الجنسيات فكرت وخططت وقررت حتكار إنتاج الأسبرين فى العالم كله.. هل تنجح؟ أم لا؟ الإجابة أنه بإمكانها لو أنها صممت! لكن هل يساوى هذا الاحتكار ما سوف يُدفع من أجله؟

هنا قد نجد أنفسنا أمام صورة من صور العولمة مرتبطة بتفكير مؤسسات فى الأمر من خلال النظر إلى مقدار ما يتحقق لها من أرباح أو منفعة نتيجة قيامها بهذا الدور، وهو ما يطلق عليه فى الاقتصاد **فعالية التكاليف**، وتكون النتيجة بعد مناقشات وممارسات أن تزدهر العولمة حين تكون العولمة نفسها مكسبا للذين يرفعون شعارها، وتتوقف العولمة نهائيا حين لا تكون مصدرا لهذا المكسب.

هنا نجد أنفسنا مرة أخرى نتصور **العولمة كشعار من شعارات الإقناع والترويج، وليس كمبدأ من مبادئ حياة جديدة أو نظام عالمى جديد!**

وربما يصدق القول إنه ليس فيما ذكرنا جديد من ناحية المثل، لكن ربما كان المهم هو أن التفكير فى النمط المترتب (تجاريا) على أسلوب التفكير بالعولمة يفتح المجال أمام آفاق متعددة وكثيرة جدا من البدائل فى صياغة موقف العولمة من حياة الناس... وموقف الناس من العولمة نفسها.

لعل النمط الثانى يوسع من آفاقنا خطوة أخرى.

- النمط الثانى: يدرس الناس الطب فى مختلف بلدان العالم الغربى [وبالتالى فى كثير من بلدان العالم المرتبط بالعالم الغربى] من منطق الطب الكيميائى الذى يُعنى بأخلاط الجسم وبيولوجيته والمكونات الكيميائية وآثارها.. وفى بعض مجتمعات ليست قليلة التعداد لا يزال الدرس الطبى للجسم البشرى يجرى بطرق أخرى.. وعلى سبيل المثال فإن الطب الصينى يعتمد على نظرية النقاط المعينة المحددة فى جسم الإنسان.. كذلك فأننا نلم بفكرة ما عن اليوجا والتأثير الروحى والتعودى والنفسى.. كما نلم بفكرة أخرى عن «طب الحكمة» كما يسمونه فى باكستان.

كيف يمكن إذاً أن تكون هناك عولمة فى هذا الصدد؟

هل يكون هذا بالاعتراف المتبادل وذلك بأن تخصص الكليات التقليدية فى القاهرة وكمبردج وهارفارد قسما فرعيا للطب التقليدى أو الشعبى أو القديم، وتسمح العواصم الكبرى بل والمدن الكبرى فى الحضارات الآسيوية والإفريقية بافتتاح مستشفيات أمريكية أو ألمانية وممارسة الطب فيها ؟ ..

إذا كان الأمر كذلك فإن سياسة الاعتراف المتبادل قائمة منذ زمن بعيد.. لكنها لم تنجح ولن تنجح أبدا فى صياغة نوع من أنواع العولمة وصبغ الممارسة الطبية بهذا النوع المختار بدقة أو بغير دقة.

❑

هل يمكن لنا الآن أن نتوقف لنقول إنه **من المستحيل أن تتطرق العولمة إلى «الأساليب» التى يمارس الناس بها حضارتهم فتغيرها..**

قد يبدو هذا القول صحيحا جزئيا، لكن التاريخ علمنا أن التطور الذى أحرزته كثير

من الحضارات لم يكن إلا نتيجة طبيعية وفورية لاتصالها بحضارات أخرى، عن طريق لقاءات الحروب ولقاءات السلم.

ولعل المثل البارز فى مهنة الطب هو ذلك التطور الذى حدث للطب الأوروبى فى أعقاب (بل فى أثناء) الحروب الصليبية، ويكفى أن نقرأ ما يرويه «أسامة بن منقذ» عن ممارسة أطبائهم للطب لنعرف أنه لولا اتصالهم بالعرب والمسلمين ما أتيح لهم بعض هذا التقدم، ألم تر إلى ذلك الطبيب الذى شق رأس المريض ليخرج منه الشيطان، وأخذ يدعك المخ بالملح!!

إذا كانت العولمة تتيح اتصالا مكثفا بأسرع مما كان الاتصال متاحا من قبل، فإنها بلاشك سوف تضاعف من حجم التأثير الحضارى الناشئ عن الاتصال والتواصل الإنسانى - الحضارى، وسوف تتيح لآليات التأثير والتأثر أن تترك آثارا غير محددة فى سياسات التطبيب والعلاج على مدى قصير جدا.

وهنا بالضبط يمكن لنا أن ننتبه إلى حقيقة أن **العولمة** فى الجانب الأكبر والأكثر تأثيرا منها **مرتبطة - وهذا حق - بوسائل الإعلام**، وأن النجاح الإعلامى فى تحقيق هذا التواصل هو العامل الأكثر تأثيرا ونجاحا فى بث أو نشر العولمة فى مجال الصحة والعلاج لتوحد من كثير من أنماط السلوك والاتجاهات الاجتماعية، بل والنفسية فى مرحلة سابقة!

❑

كلنا يعرف أن وسائط الإعلام المختلفة قد أثبتت من قبل نجاحا فائقا فى تحقيق رسائل تنموية مهمة تتعلق بالتوعية الصحية والإعلام الصحى، وإلى الحملات الإعلامية (المخططة جيدا) يُعزى كثير من النجاح فى مكافحة ومقاومة كثير من الأمراض والأوبئة، وهذا كله حق لا مراء فيه.

ولكن على الجانب الآخر فإن نجاح وسائل الإعلام فى فرض سياسة صحية عالمية

لا يمكن أن يتحقق بنفس السهولة لأسباب كثيرة، لعل أهمها هو افتقاد الآليات الكفيلة بتحديد المسئول عن التمويل، فضلا عن إتمام عملية التمويل نفسها، وربما تثور فى هذه اللحظة مشكلات مرتبطة بتحديد قدر استفادة كل مستفيد من نجاح الحملة سواء أكان الأكثر استفادة هو الدولة أم الشعب أم الدولة المجاورة أو الشعوب المجاورة، دعك من أصحاب العمل وأصحاب رءوس المال.

وعلى سبيل المثال ربما يسأل كل هؤلاء سؤالا وجيها عند بدء دعوتهم للمشاركة، ومع أنهم يعرفون إجابته فإنهم لن يتورعوا عن أن يسألوه: أليس من واجب الهيئة الصحية العالمية (منظمة الصحة العالمية) وهى هيئة قائمة وذات كيان بيروقراطى ضخم ومنتشر فى جميع أرجاء الدنيا، أليس من واجب مثل هذه الهيئة أن تتولى التمويل أو تدبير التمويل لفرض (أو ترويج) سياسة صحية ما؟

وإذا ما وصلنا إلى هذه النقطة، فإننا نكون قد وصلنا إلى حيث يأتى الصراع التقليدى المرتبط بالعقائد.

ولنأخذ مثلا واضحا جدا وهو قضية تنظيم الأسرة، فالرؤى مختلفة تماما، وبعض العقائد تكاد تناقض عقائد أخرى، بل وعلى مستوى أكثر تعقيدا من العقائد فإن السياسات الاقتصادية والاجتماعية نفسها متعارضة فى أهدافها (ويكفى على سبيل المثال أن نشير إلى مصلحة الفلسطينيين فى داخل إسرائيل فى الإكثار من الإنجاب)..

هل يمكن ، والوضع هكذا ، أن نفرض على العالم اتفاق جنتلمان بحدود قصوى للتزايد أو النمو السكانى؟

تصعب الإجابة بنعم.

ومع هذا فإن الأمل فى تجاوز الإجابة بـ«لا» لا يزال قائما.

ونعود إلى ما بدأنا به حين ضربنا المثل بالدواء، وربما تصبح الأسئلة هنا ذات مضمون:

- ❏ هل يمكن التجاوز عن فرض رقابة محلية على الدواء المستورد؟
- ❏ هل يمكن تعميم القيم الأخلاقية على ممارسة صناعة الدواء؟

نظريا يمكن، وعمليا لا يمكن عولمة مثل هذه المجالات حتى على مستوى الموظف المنوط به منح التصاريح الخاصة بالاستيراد أو السماح بالاستعمال أو التعاطى أو التداول أو التجارة.

وهناك أنماط كثيرة للفهم العقدى (نسبة إلى العقيدة) لطبيعة ووظيفة الدواء، بل إن المنفعة الشخصية قد تكون فى لحظة من اللحظات بمثابة عائق - ولو مؤقت - أمام انتشار أحد العقاقير، لنذكر على سبيل المثال موقف وزير الصحة فى إحدى البلدان الإسلامية الذى خاض حملة شرسة ضد عقار الفياجرا انطلق بها إلى أبعد مما يحتمله عقار واحد، ونشأت صدامات حقيقية مع صناع الدواء وموزعيه، بل ومع الرأى العام الذى كان متعطشا إلى إيجابيات ذلك العقار الممنوع.

❏

ربما يجوز لى وأنا أقترب من النهاية أن أمضى الآن إلى نقطة أكثر بعدا عن مناطق الاختلاف **النفعى أو القيمى**، وهما العنصران اللذان تناولتهما حتى الآن.

ولنقفز إلى العنصر الثالث وهو العنصر **الأخلاقى**.

نحن نعرف أن الأخلاقيات لا تزال أحد الحواجز بين الدول والقوميات بحكم موروثات تاريخية قديمة وحديثة على حد سواء.

- ❏ ترتبط الأخلاق بالقيم لاشك فى ذلك.
- ❏ وترتبط كذلك بالمنفعة... لا خلاف على ذلك.

ولكنها تبقى بمثابة جانب ثالث مختلف عن الجانبين الأولين.

لنتأمل نظرة المجتمعات إلى الجسم البشرى، كان الرومان يحثون أطفالهم منذ مرحلة مبكرة على دراسة (وفحص) هذا الجسم والاستمتاع به، بل ومعرفة أعضاء الجنس الآخر.

> وفى هذا الصدد سأنتقل مباشرة إلى العصر الحديث وسألجأ إلى قصة عاصرتها بنفسى.. فقد فوجئت ذات يوم بزميل أستاذ فى كلية طب مصرية يطلبنى تليفونيا من الخارج وهو منزعج، وسأختصر القصة لأروى للقارئ مباشرة أن زميلى هذا لم تكن عنده أدنى فكرة عن هذا التوجه [الرومانى] القاضى بالاستمتاع والمعرفة حتى ذهب صباح ذلك اليوم ليتابع أمورا روتينية جدا تخص ابنته فى المدرسة الابتدائية بعد أسبوع واحد من التحاقها بها فى إحدى العواصم الأوروبية، وحين وجد البنات والبنين جميعا فى حمام السباحة عرايا تماما بدون أى ملابس.. انتابته موجة عارمة من الذهول.. وقد استنكر بالطبع أن تشترك ابنته فى مثل هذا، وردت عليه الناظرة باحترام شديد: إن هذه الحصة حصة دراسية أساسية فى المقرر للتعرف على الجسم البشرى عاريا تماما، سواء فى ذلك البنت والابن!!

لهذا السبب وفى ظل حيرة عميقة تالية للذهول المفاجئ اتصل بى هذا الزميل..

ومن البدهى أنه كان فى حاجة إلى مشاركة عقلية - وجدانية فى الحالة التى وجد نفسه يواجهها.

وقد رويت له بتوسع عبر التليفون ما رويته للقارئ باختصار عن عقيدة وسلوك الرومان تجاه الجسد البشرى.. وبالتأكيد فلم يكن فى وسعى - ولا كان مطلوبا منى - أن أقنعه بوجهة نظر المجتمع الجديد، لكن كان فى إمكانى أن أشرح له الخلفيات الثقافية

والحضارية بكل دقة، وقد فعلت ونجحت، وأضفت إلى هذا بعض الحديث عن التوجهات التربوية وكيف تُبنى - الآن - على مستوى المناهج الدراسية..

وكان زميلى ممتنا بأكثر مما أستحق، وكان سعيدا أن اختياره لهذا التواصل معى حقق له بعض هدوء النفس.. لكنه - وهذا طبيعى - ظل يعترف بأنه لم يفهم حتى هذه اللحظة مثل هذا المغزى ولا المعنى التربوى فيما وراءه (وأظن أنه ليس من حقى أن أتحيز إلى رؤيته - بحكم تربيتنا المشتركة - وأقول: ومعه حق)، و لكن إذا كان مثل هذا المستوى الفكرى والعقلى [لأستاذ متميز فى الطب] غير قادر على استيعاب هذا النمط من تفكير «الآخر» الذى قد يقدر له أن يسود فى الحياة الطبيعية الفسيولوجية، فما بالنا فى الأمراض؟

ربما بدا السؤال عميقا.. لكنه بكل تأكيد غير عقيم.

❑

وربما أذكر الآن مثلاً أخيراً كثيراً ما أستشهد به لطلابى ولزملائى كمدخل لفهم الممارسة الخلقية لمهنة الطب.

نحن نعرف حكم الحضارات المختلفة فى الإجهاض، هناك مَنْ يبيحه مطلقا، ومَنْ يحرمه مطلقا، ومَنْ يجيزه فى بعض الأحيان دون البعض الآخر، لكن ماذا عن الطبيب النوبتجى المسئول فى قسم النساء والتوليد؟ هل يكون من حقه أن يفرض معتقداته هو حين يُطلب منه أداء هذه العملية؟!

الإجابة تختلف حتى فى هذه الجزئية المرتبطة بممارسة مهنية مطلقة، بالطبع فإن السلطات الصحية فى بعض الدول (ومنها بريطانيا على سبيل المثال) تترك للطبيب حق الامتناع عن الإجهاض إذا كان هذا يتعارض مع عقيدته.

وهناك سلطات أخرى فى دول أخرى لا تسمح لمثل هذا الطبيب (المسلم أو الكاثوليكى على سبيل المثال) بأن يمتنع عن أداء مهنة مطلوب منه أداؤها خاصة أن

القوانين تسمح للمواطنين بطلب هذه الخدمة الطبية لأن الإجهاض مباح بالفعل فى قانون الدولة!!

وفى هذه الحالة فإن الطبيب الممتنع عن إجراء الإجهاض [لمن تطلبه] لا يعُامل إلا كما يعُامل مَنْ امتنع عن إنقاذ حياة مريض من الموت، مع أنه - وياللمفارقة - فى هذه الحالة [وطبقا لعقيدته هو] كان يود لو امتنع عن إزهاق حياة إنسان.

هذا المثل الذى قدمته لتوى قد يكون مزعجا لبعضنا بعض الشيء، وربما يكون مع قدر من التأمل أكثر إزعاجا من قصة حمام السباحة، لكنه يتكرر الآن، لا مع اختلاف الحضارات، بل فى داخل شعوب ترتبط بالحضارة الإسلامية وبالمذاهب السنية نفسها، وربما أدرك القراء أنى أشير من بعيد إلى الآراء المختلفة فى نقل الكلى على سبيل المثال.

❑

وأنتهى بما بدأت به:

تظل العولمة فى الطب صعبة التحقيق على الرغم من أن الطب كان ولايزال أكثر المجالات الإنسانية التى أمكن تحقيق نجاح عولمى فيها، ربما بعد الإعلام مباشرة، وربما قبله...

وليس أدل على هذا الزعم من أن كل العالم يستعمل الأسبرين والبنسلين والسلفا حتى وهو يحارب بعضه بعضا.

هل النمو الإسلامى فى ماليزيا هو المستهدف؟

حين اجتاحت الأزمة الاقتصادية عدداً كبيراً من الدول الآسيوية سواء فى ذلك النمور وأشباه النمور والسابقات على النمور (كاليابان نفسها) لم يكن يدور بخلد أحد أن تنتهى الأزمة بالصورة التى انتهت اليها ، وأن تنحصر الآثار الاجتماعية للأزمة فى دولتين بعينهما هما أندونيسيا وماليزيا وهما الدولتان الاسلاميتان البارزتان فى مجموعة الدول الأسيوية التى شهدت التقدم السريع فى الفترة السابقة .. ولكن حدث ما حدث وانحصرت الآثار الاقتصادية فى الاقتصاد فى كل هذه الدول ، بينما فجرت الازمة الاقتصادية أزمات اجتماعية وسياسية فى البلدين الشقيقين .

ومن العبث أن يحاول أى انسان أن ينفى وجود جذور وبذور للمشكلات الاقتصادية أو النقدية التى حدثت فى الدولتين ، ولكن من العبث أيضاً أن يتجاهل أى انسان أن قيم الاسلام قد ووجهت بضربات ذكية وخبيثة فى ذات الوقت فى طبيعة الصراع الذى دار ويدور فى البلدين .

❑

فى ماليزيا لعبت جماعات المصالح دوراً ماكراً وخطيراً فى تأجيج الصراع فى الضمير الاسلامى لكل من الحاكم (فى هذه الحالة هو رئيس وزراء ماليزيا محاضر

محمد ، رغم وجود سلطان لماليزيا بالتناوب) وللشعب بل ولكل فرد من أفراد هذا الشعب.

ومن أعجب ما يمكن أن الصراع الذى أدير باقتدار لكى يقود إلى التمزق (الذى لم يحدث ولكنه قابل للحدوث فى أى وقت) كان بين قيمتين اسلاميتين رفعيتين وأصيلتين ، فطهارة السلوك الشخصى أمر مندوب ومستحب من المحكومين ومن الحاكم من باب أولى ، وفى ذات الوقت فان القيم الاسلامية تأبى انتهاك حرمة الاشخاص (المحكومين والحاكمين من باب أولى) من أجل التجسس على سلوكهم حتى لو كان مشكوكا فى أن يكون مشيناً .

ولأن الحكم فى بداية هذا الصراع كان لضمير رئيس الوزراء وكان هذا الضمير يفكر فى مسئوليته أمام ربه قبل أن يكون أمام شعبه ، فقد تغلبت عليه فيما يبدو نزعة مهنته وتعليمه الطبى ورأى أنه لايمكن أن يبقى على ورم دون استئصال ، ولا على مرض دون علاج.

وحين استعمل رئيس الوزراء الماليزى المشرط السياسى انفتحت عليه أبواب تشبه أبواب جهنم ، وكانت أبرز هذه الأبواب سطوة هى أبوب الاعلام الغربى الذى لم يكن فى الأصل راضيا بأى حال من الأحوال عن التوجهات الديمقراطية والاجتماعية لأنور إبراهيم ولاعن نجاح التآلف والتعاون بين محاضر محمد وأنور ابراهيم ولكن بعض هذا الاعلام الغربى لم يكن ليمانع فى ذرف بعض الدموع على الخصم الذى تمنى له الزوال ، ولن يمانع لبعض الإعلام الغربى مرة أخرى فى أن يكون أجيراً فى الندب بحرقة على ميت كان هو فى الأصل عدوه.... وذلك بحكم طبيعة مهنة الندب نفسها .

❏

عند هذا الحد لم يكن من الصعب أن تختلط الأوراق على الشعب الماليزى ولم يكن للشعب أن ييأس ولا أن يبتئس ، ولكنه فى كثير من اللحظات كان يجد نفسه وليس أمامه الا هذا اليأس، وهذا التمزق... إلى حين.

ولربما أن الرئيس محاضر نفسه ظل طوال هذه الأزمة عاجزا عن النوم بعد أن اضطر إلى اتخاذ مثل هذا الإجراء ضد صديقة وخليفته الذى هو أقرب إلى الابن منه إلى الأخ (فارق السن عشرون عاما) ولكن محاضر محمد وجد نفسه وهو يحاول علاج المرض أو استئصال الورم قبل أن تُهاجم اخلاقه وكفاءته فى أنه أهمل العلاج أو ترك الورم فضلاً عن أنه بحكم واقعيته وانسانيته وتواضعه وذكائه وبعده عن التأله والتأليه يدرك تماماً بل وقد صرح بالفعل بأن أيامه فى الحياة ليست طويلة ، وبالتالى فلا يجوز له أن يكرس وضعاً خاطئاً ، ولا أن يفرض على شعبه خليفة أصابه التجريح ولو من بعيد .

ولربما يختلف تقييمنا وتوقعنا لما كان على رئيس الوزراء محاضر محمد أن يتخذه من اجراءات أو سياسات بعد أن ووجه بهذا الشريط الذى يدين أنور إبراهيم ، ولكن أحداً منا لايستطيع أن يزعم أن الموقف الذى واجهه محاضر محمد كان سهلاً ، ولا أنه كان فى وسعه بحكم ثقافته وتعليمه أن ينحو فيه منحى آخر من « التقاليد الميكافيلية » كتدبير الخلاص من نائبه بالاغتيال أو بحادث ملفق كما أنه لم يكن فى وسعه أن يعالج الأمر بطرق أخرى من « التقاليد القبلية » كالابقاء عليه والدفاع عنه بالباطل مهما طال الأمد .

وعلى كل فربما يصدق فى هذه الحالة القول بأن محاضر محمد ظل طوال الأزمة لايستطيع بدء النوم ، ولكنه حين كان يشرع فى النوم فانه كان ينام بعمق ..

❑

وعلى كل الأحوال فان رئيس الوزراء الماليزى رغم كل شئ كان عند حسن الحظ به، وقد امتلك شجاعة المواجهة فضلاً عن الشجاعة الأدبية ، وبالاضافة إلى هذا فانه أدى واجبه فى حدود قدراته العقلية والسياسية والزمنية ...

ولكن كل هذا الانجاز الصعب للأسف الشديد أخذ يضيع ويتلاشى ويتبخر وسط

ضجيج الاعلام الغربى، وليس هذا بالأمر المستغرب، وإن لم يكن من اللائق أن يضيع أثره وفهمه عندنا هنا للأسف ، انما يجب علينا على الأقل استخلاص العبرة فى فهم طبيعة النظام الاجتماعى والمبادئ الحاكمة له.

ويكفينا فى هذا الصدد أن تشير إلى المعانى الواضحة جداً التى أرساها القرآن الكريم فيما يتعلق **بصيانة الحرمات الشخصية قبل صيانة الحريات الشخصية** ، والضوابط الرهيبة التى اشترطها القرآن الكريم والفقه الاسلامى من أجل السيطرة على مهرجانات الفضائح التى قد تنزع النفوس إليها فى لحظات الضعف البشرى.

ومن حسن الحظ أن تاريخ التشريع الاسلامى قد اشتمل على كثير من الاحكام والمواقف التاريخية التى كانت كفيلة بأن تنبه المجتمعات الاسلامية إلى حدود المشروعية فيما يتعلق بالحرية الشخصية ، ولكن من سوء الحظ أن نظمنا القضائية فى بعض موادها قد انحازت للخاص على حساب العام (كما فى حالات إثبات زنا الزوجة) ومن ثم فقد أفقدت العام مغزاه من دون أن تدرى ..

وليتنا انتبهنا مبكرا إلى تفريق الفقه الاسلامى المبكر بين نوعين من الحقوق : حقوق الله ، وحقوق العباد.

❑

ونعود إلى مابدأنا به لنذكر أنفسنا بأن النمو الإسلامى فى ماليزيا مستهدف، لأنه نمو اقتصادى حقيقى مدروس ومنظم، وهو ينبىء عن دولة راسخة الأقدام فى اقتصاديات المستقبل، ولكن هذا لا يسعد جماعات مصالح دولية يصعب عليها أن تتقبل نجاحا إسلاميا فى هذا المجال، ولهذا فان الضجيج سوف يثور حول أى حدث داخلى فى ماليزيا حتى يشوش على الاقتصاد الناجح هناك.

وعلى الرغم من فشل التشويش فى ماليزيا فان فرصته فى إندونسيا لا تزال كبيرة ..

عقب ظهور نتائج الجولة الأولى من انتخابات الرئاسة الفرنسية (٢٠٠٢) تنامى الإحساس بالخوف وبخطورة فوز الاتجاه اليمينى المتطرف بقيادة لوبان زعيم الجبهة الوطنية بحجم ذى قيمة من أصوات الناخبين الفرنسيين، ومع أن فوز لوبان بالرئاسة كان أمرا مستبعدا تماما منذ البداية وطوال مراحل المعركة الانتخابية، إلا أن مجرد حصوله على شريحة عالية من الأصوات أهلته لخوض الجولة النهائية نظريا فحسب، كان بمثابة جرس إنذار شديد الخطورة والتنبيه للمجتمع الفرنسى والمجتمع الأوروبى أيضا.

وقد مثل هذا الجزع الشديد الذى لاحظناه جميعا ظاهرة صحية متميزة دلت فى المقام الأول على مدى الانتباه الذى يحظى به الضمير الحضارى الفرنسى (والأوروبى) لخطورة تنامى العنصرية أو حتى ازدهار القومية على أساس عنصرى، ولو أن هذا الانتباه لم يحدث بهذا القدر الواعى واليقظ لكان هذا بمثابة بداية تدهور فى إحساس المجتمع بقيمه.

ومن ثم فقد كان من الممكن أن ينجرف المجتمع الفرنسى بسرعة فى خطوات حتمية ومتتابعة ومتسارعة تقوده بسهوله إلى طراز ما من طرز الفاشية أو النازية،

وهى طرز متعددة وبراقة المظهر وناعمة الملمس، لكن اكتواء الإنسانية بها فى الحرب العالمية الثانية وما أعقبها ظل - حتى الآن - بمثابة المصل الواقى الذى اكتسبته الإنسانية طيلة القرن الماضى وهى تستعرض من آن لآخر تجربتها الحية مع الأفكار التى تبدو ، للوهلة الأولى ، براقة وجميلة لكنها فى واقع الأمر تقود المجتمعات إلى كوارث على جميع المستويات.

وربما يتضح هذا المعنى من تأملنا فى الملامح الرئيسية لبرنامج لوبان التى تبدو وكأنها منطقية ومشروعة بينما هى فى واقع الأمر تبشر بكل ما من شأنه أن يهدم فرنسا التى عرفناها كفكرة وككيان، وليس من سبيل إلى تلخيص جوهر أو طبيعة أفكار لوبان إلا أن نستعيد التشبيه القائل بذبح الدجاجة التى تبيض ذهبا، وهو نوع من قصور النظر الذى لا يدرك حقيقة التفاعل الحى الذى يقود إلى عملية التبويض نفسها ومدى علاقته بالزمن وبالحياة نفسها.

وبرنامج لوبان إذا ما تأملناه جيدا لا يخرج عن فكرة الإسراع بذبح الدجاجة من أجل الحصول على الذهب المتوهم وجوده فى باطنها.

وتشتمل العناصر الأساسية فى برنامج لوبان على:

- طرد الأجانب وعدم منح الجنسية الفرنسية إلا لمن ينحدر من أب وأم فرنسيين، وليس ممن اكتسبوا الجنسية الفرنسية، وهو بذلك يقصد منح الجنسية فقط للفرنسى بالدم، أى أنه يعود بوطنه المتحضر إلى قضية تم طرحها كثيراً فى الماضى وتطالب بضرورة الفصل بين الأعراق.
- بناء سجون جديدة ، ومنع بناء المساجد ، وإعادة المهاجرين إلى بلادهم حتى أولئك الذين يملكون الجنسية.
- «**الأفضلية الفرنسية**» أى الأولوية فى فرص الحصول على وظائف فى الحقوق المدنية والعلم والطب والمساكن الاجتماعية ... وغيرها.

● فصل فرنسا عن الاتحاد الأوروبى ونبذ اتفاقية «ماستريخت» و«شنجن» وجميع الاتفاقات الأوروبية ، والعودة إلى العملة الفرنسية، وفى هذا الإطار ينادى زعيم الجبهة الوطنية بإقفال الحدود من أجل منع الأجانب ، والأشخاص القادمين من العالم الثالث من دخول فرنسا (!!)

● محاربة الإجهاض باعتبار أن الإجهاض «ثقافة موت» وهو يريد ثقافة الحياة، من هنا يأتى سعيه لتشجيع كثرة الولادات ، ومنح المزيد من المساعدات للأسرة التى تملك أولادا أكثر.

- تخصيص ٤ ٪ من الناتج القومى العام لموازنة الدفاع، على حين أن المعدل الحالى لا يتجاوز ٢ ٪، كما أنه يشجع - إذا احتاج الأمر - إعلان حالة الطوارئ فى البلاد لتنظيم الأمور وإحلال الأمن.

ومع هذا كله يريد لوبان - وهذه نقطة يوافقه عليها كل الفرنسيين - خفض الضرائب إلى نسبة لا تتعدى ٥٣ ٪.

❑

وربما يعنينا من هذا البرنامج ذلك الجانب المتعلق بالآخرين فى برنامج لوبان.

إن لوبان يظن أن مَنْ يسميهم «الأجانب» يستنزفون فرنسا بدون مقابل، بينما هم ، فى حقيقة الأمر ، يقدمون لفرنسا خدمات جليلة الشأن، سواء كانت فى مستوى عقلى رفيع أو فى مستوى يدوى وضيع!

ولو أن لوبان طبق نظريته فى يوم وليلة لافتقرت فرنسا تماماً إلى كثير من المهن ولاضطرت وبأقصى سرعة إلى استيراد عمالة مدربة بأضعاف ما تكلفها العمالة التى يتولاها المتفرنسون ، أو هؤلاء الذين يسميهم لوبان بالأجانب.

إن نجوم فرنسا فى الفكر والفن والأدب والرياضة لم يكونوا من الفرنسيين أبا وأما على نحو ما يطلب لوبان فى المستحقين للجنسية الفرنسية، ومع هذا فإن فرنسا

فاخرت بهؤلاء النجوم الأمم لأنهم عاشوا فى فرنسا بل إن حقيقة الأمر هى أنهم عاشوا فى فرنسا من ناحية عاشت بهم فرنسا من ناحية أخرى.

وفضلا عن هذا فإن مفاهيم لوبان عن الوظائف التى يمكن توفيرها للفرنسيين بعد طرد المتفرنسين تشبه إلى حد كبير مفاهيم «القروى» الذى قدم المدينة لأول مرة فأخذ يستنكر كثرة الوظائف والتخصصات التى يراها فى كل مجال، وظن أن بإمكانه أن يقوم بكل هذه المهام على نحو ما كان يقوم بها فى قريته، فإذا به على وشك أن يفقد حياته فى أول وظيفة من تلك الوظائف التى تصدى لها.

❑

ومن حسن حظ الانسانية أن الحضارة الحديثة تأبى أن تمنح الوجود السعيد لأولئك الذين لا يدركون مدى تعقيدها ومدى حاجة الناس إلى بعضهم، ولأولئك الذين لا يدركون مدى المجازفة بتقبل أفكار أولية تبدو منطقية لأول وهلة لكنها لا تصمد كثيراً أمام التأمل.

ولعل مما يؤكد رؤيتنا فى هذه الجزئية أن الذين صوتوا للوبان ، حسبما أظهرت التحليلات العلمية لتوزع أصوات الناخبين ، لم يكونوا من أولئك الذين يدركون قيمة أفكاره ولا قيمة الأفكار المضادة، لكن هؤلاء كانوا خليطا.

- **من أولئك الذين يأسوا من وضع قائم أو ضجروا منه.**
- **ومن أولئك الذين لم يمانعوا فى أن يرسلوا رسالة إلى الجبهتين التقليديتين بأنهم لا يمانعون فى المضى نحو طريق ثالث.**
- **ومن أولئك الذين يتأثرون بالإعلام الذكى الذى وظفه لوبان نفسه بطريقة جيدة..**

ومع هذه الطوائف الثلاث تأتى طائفة رابعة كان من المدهش للمراقبين أنها صوتت مع لوبان مع أن الذين درسوا النفس البشرية لا يندهشون لتصرف هذه الطائفة التى صوتت أغلبيتها للوبان على الرغم من أنه بصريح العبارة أعلن عدائه لجذورها.

□هذه الطائفة هى طائفة أبناء المهاجرين التى تعيش فى الحزام الأحمر فى الضواحى الباريسية.

فقد وجد هؤلاء فى لوبان بعض صورة أنفسهم التى لم تتمتع بعد بالصقل (والتعمق) والتأمل الحضارى.

نعم فقد وجدوه مباشرا وصريحا وأكثر إيحاء بالثقة من غيره من الزعماء التقليديين الذين يبدون وكأنهم يظهرون ما لا يبطنون، ووجدوا فى أفكاره اليمينية امتدادا لبعض أفكارهم اليمينية التى ورثوها فى جذورهم التى لا تزال بالطبع ترويهم بالظمأ إلى أمثال لوبان حتى لو كان عدواً.

ومن حسن الحظ أن فرنسا انتبهت إلى ما يهدد مصالحها ووحدتها وخرجت لتقول لزعيم الجبهة الوطنية : لا.

□

ولكن بقى بعد هذا أن نتأمل فى عالمنا الإسلامى هذا الدرس المجانى الذى تلقيناه فى فنون السياسة، ولهذا الدرس أكثر من مغزى:

المغزى الأول: أن ننتبه إلى أن ديننا الذى هو فى عقيدتنا دين للناس كافة وللبشر أجمعين لا يسمح لنا تحت أى ظرف بأن نبادل عنصرية بعنصرية، بل إن محاربة العنصرية لم تجد لها من الدوافع والمبررات أكثر من إلمام أصحاب الرأى والفكر فى العوالم المتقدمة بتجربة الإسلام الثرية فى احتواء الآخرين والانتفاع بهم وتوظيفهم وتوظيف مهاراتهم من أجل الإنسانية..

وأخشى ما أخشاه أن تجد ردود الفعل المقلدة لهذا السياسى الفرنسى العنصرى بعض صدى عند بعض مَنْ يحاولون الظهور فى مجتمعاتنا الإسلامية.

المغـزى الثـانى: أن ننتبه إلى أهمية العمل على تحريك الأغلبيات الصامته من خلال الرأى العام على نحو ما فعلت فرنسا فى هذا الظرف الذى كان كفيلا بمثل هذا التحريك، ولن يتأتى هذا إلا بخلق حالة من الوعى التى لابد منها على مستويات متعددة..

المغـزى الثـالث: هو أن نعنى بابراز صورة العربى المسلم فى المجتمعات الغربية، لابد لنا أن نلفت النظر بدقة وبأرقام وبسيناريوهات إلى أهمية وجود العرب والمسلمين فى هذه المجتمعات، من واقع ما يؤدونه بالفعل، ولابد لنا من اعتبارهم سفراء لهم حقوق السفراء، كما أن عليهم بعض واجبات السفراء.



3

مكانة الإسلام فى التحالفات الجديدة

- من الحرب الباردة إلى الحرب المتجمدة
- هل آن أوان التوجه المكثف نحو الصين؟
- حوار مع بريماكوف فى تونس
- روسيا بين الصحة والمرض

كنت ومازلت أعتقد أن التفجيرات النووية الأسيوية التى شهدها العالم فى الهند وباكتسان قرب نهاية القرن العشرين كانت بمثابة نقطة اللاعودة فى التحول من الحرب الباردة إلى الحرب المتجمدة ، وبالتالى فى إنهاء ما يمكن تسميته بسيطرة أقطاب محدودة (سواء فى ذلك الاحادية والثنائية والخماسية) على مقدرات الأمور فى المجتمع الدولى وانتقال هذه السيطرة بالتدريج إلى دائرة أوسع.

وليس المهم هو اتساع الدائرة فى حد ذاته وإنما المهم هو القدرة المتجددة لهذه الدائرة على الاتساع ، ذلك أن المجتمع الدولى فى هذه الحالة لن يجد نفسه أمام أقطاب جديدة بقدر ما سوف يجد نفسه مرة بعد أخرى أمام **احتمالات متجددة لأقطاب متجددة.**

ومع أن الدراسات السياسية والاستراتيجية تميل ، بحكم كونها دراسات ، إلى أن تحاول حصر هذه الأقطاب والتنبؤ بها إلا أن هذه الدراسات تظل عاجزة ، بصورة بارزة ، عن أن تنجح فى حصر كل إمكانية لوجود أو احتمال نشوء أقطاب ذات قوى كامنة فيما يتعلق بتكوين عناصر القوة.

ولا يمنع هذا ولا يقلل من قدرة التنبؤ ولكنه يؤكد الحقيقة التى قد يتغافل عنها بعض الخبراء الاستراتيجيين وهى أن **التنبؤ عملية علمية وفكرية لا يمكن أن تبدأ من فراغ** ، وكذلك فانها لايمكن أن تمتد إلى مالم تحط بعلمه أو بدراسته أو باستطلاعه.

وهكذا فسوف ينتبه العالم إلى حقيقة بدء عصر الحروب المتجمدة أى الحروب التى لايمكن لها أن تنشأ إلا تحت معطيات محددة (هى فى الغالب مستحيلة) كفيلة باخراج عناصر من وضعيتها الحالية إلى وضعية أخرى ثم تعريض هذه المعطيات إلى أقصى درجة من الظروف الكفيلة بتحويل الثبات **الجليدي** إلى حالة **سيولة** ، ثم تحويل هذه السيولة إلى **فوران** ، ثم تحويل الفوران إلى **فوران فاعل** فى اتجاه محدد سلفاً.

❑

حين يتأمل المرء تاريخ الحياة الانسانية فإنه يعجب بصورة تجعله لايكف عن السجود لعظمة الخالق اللامتناهية فيما أودعه الله فى الانسانية المعذبة من أسرار.

فعلى الرغم من هذا العبث الذى لم يكف البشر عنه فى يوم من أيام حياتهم على الأرض إلا أن هذا العبث نفسه كان كفيلا بتطور الانسانية إلى درجات من الإدراك للوظيفة البشرية ولانقول إلى درجات من الرقى أو التطور أو الصعود حتى إن كنا لانشك فى ذلك.

كذلك فإنى أود أن ألفت النظر إلى أن حياة الانسان على كوكب الأرض قد شهدت على الدوام (على نحو ما عرفنا وما قدر لنا أن نعرف) محاولات دائبة ودءوبة لتسخير الطاقة المتاحة والمادة المتاحة من أجل منفعة الانسان على حسب تصوره هو للمنفعة حتى ولو كان تصوره قاصراً.

وقد أدى هذا بلاشك إلى أن ارتقى هذا التصور نفسه ، وازدادت قدرة الانسان على الانتفاع بما استطاع استغلاله من مواد أولية ومن مواد أخرى .

وقد هدى الله الانسان الأول إلى بعض ما هدى به خلفاءه على كوكب الأرض ... وفى كثير من الأحيان كان يبدو للانسان أنه ازداد ذكاء ولكن المضى فى التفكير كان يدله على أنه ربما ازداد ذكاء وربما قل ، ولكنه بكل تأكيد طور من استغلال ما سبق له استغلاله ، هكذا فعل الانسان فى الماء والنار والخشب والمعدن والرمال والحجارة ، ولسنا فى حاجة إلى شرح هذا التطور فهو معروف بدرجة أو بأخرى ولكننا نستطيع أن نمتد بالفهم ذاته إلى السلاح .

قد نفهم بسهولة أن كل إدارة إنسانية كانت تستخدم السلاح كانت تؤدى وظائف أخرى قد يجوز أن نطلق عليها وظائف سلمية ، وقد لايجوز ، وقد يجوز أن نسميها وظائف غير حربية ، وقد لايجوز ، ولكن **الفهم البيولوجى يكاد يوحد بين استخدام السلاح فى الصيد واستخدامه فى الحرب فكلاهما قتل** وإن اختلف المقتول ، وكلاهما قتل وإن اختلفت أيضا معاملة القتيل سواء بالافادة منه كله أو من بعض اجزائه فحسب، وربما لايستهدف القتل إلا الحصول على جزء واحد كالعاج أو الفراء ، وفى بعض الأحيان فان الانسان حين يقتل الحيوان (كله) يعمد إلى التخلص منه فحسب دون أن يهدف إلى تحقيق أى فائدة من جثته أو بقاياه ، بل ربما أصبحت هذه البقايا بمثابة العبء ، ولعلنا ندرك هذا فيما نفعله مثلاً فى الحشرات المنزلية كل يوم .

❑

وقد اهتدى الفكر البيولوجى منذ مراحل مبكرة إلى وجود صور مختلفة للتعايش بين القوى الحيوانية القادرة على الفتك ببعضها وبين القوى غير القادرة على هذا الفتك إلا فى اتجاه واحد ، وتجلت قدرة الخالق جل فى علاه على أن يحفظ بهذا

التوازن البيولوجى الحياة الحيوانية والنباتية والبرية على مدى عمر كوكب هذا الأرض.

ويكاد المتأملون لطبيعة دور الانسان فى الحياة الدنيا أن يصلوا إلى ما وصل اليه الملائكة من فكر حين أخبرهم المولى جل جلاله بأنه قرر أن يستخلف الانسان فى الأرض ، ولكن من حسن البشرية أن الله قد أنعم على عقولها فى مرحلة مبكرة بما يرتفع بنتيجة فكرها العقلى القاصر عن أن تقف عند الحدود التى وقفت عندها الملائكة حين قالت لله سبحانه وتعالى : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ فأجابهم المولى﴿ إنى أعلم ما لاتعلمون ﴾ ...

وهكذا أصبح فى وسع العقل البشرى أن يدرك أن وراء كل هذا التدافع البشرى منافع أخرى كفيلة باستبقاء الحياة والحضارة بل واستبقاء العبادة نفسها بل والعبادة المتواصلة المكثفة بكل صورها لا الحياة والحضارة فحسب ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم لهدمت صوامع وبيع وصلوات يذكر فيها اسم الله ﴾ .

على هذا النحو استطاع العقل البشرى فيما أفرزه من انتاج كثير من المفكرين والفلاسفة أن يصل إلى تقدير حدود مدى الفائدة التى حققها الطب على سبيل المثال من اندلاع الحروب ، ومن الحقائق المسلم بها فى تاريخ الطب أنه إذا كانت هناك عوامل بشرية وراء التقدم الرهيب الذى أحرزته العلوم الطبية على مدى الزمان فإن الحروب تأتى فى مقدمتها ، وهذا هو ما أثبته تاريخ العلوم الطبية على مدى الأحقاب المتوالية من الزمان .

❑

وقد دلتنا دراسة توازن القوى الحيوية حتى على مستوى الخلية وعلى مستوى التفاعلات الكيمائية الحيوية البسيطة أن الاستقرار لايتحقق إلا نتيجة لوجود التوازن فى القوى ، حتى وإن لم تكن هذه القوى متحدة الطبيعة ، وأنه فى غياب هذا التوازن تنشأ وتتزايد حالات الاستقطاب.

وحين يكون الاستقطاب هو الأساس المطلوب لبدء حلقة من التفاعلات كفيلة بادارة وظيفة حيوية صغرى أو كبرى (كما فى حالات انقباض القلب) فان عودة التوازن من جهة أخرى تكون بمثابة العامل الكفيل ببدء دورة جديدة، من دورات الطبيعة كفيلة بتكرار أداء الوظيفة ، ومن دون تكرار أداء الوظيفة لايمكن للحياة (سواء على مستوى الخلية أو النسيج أو العضو أو الفرد) الاستمرار.

❑

على هذا النحو كنت أنظر بمنتهى الاعجاب والثقة والتفاؤل إلى ما حدث من تعاقب التفجيرات الآسيوية فى نهاية القرن العشرين ، وكنت أجد فى هذا الحدث وتكراره أكبر خطوة جبارة تخطوها البشرية نحو الاستقرار السياسى وانهاء حالات الاستقطاب القلقة ، بل إننى كنت على الدوام متفائلا لأسباب ثلاثة :

(١) أن امتلاك كل من الدولتين الجارتين للسلاح النووى كان كفيلاً إلى أبعد حد بايقاف التهديدات الصادرة عن الطرف الآخر عند حدود الكلام والتصريحات ، فليس هناك بشر عاقل بقادر على أن يتخذ القرار الذى يدمر به نفسه ، ومن حسن الحظ أن العقل الجمعى ينجو بأكثر مما ينجو العقل الفردى من الميل النادر إلى اتخاذ قرار الانتحار .. وهكذا فقد أصبح النزاع الهندى – الباكستانى على سبيل المثال مدفوعاً بشدة إلى مائدة المفاوضات بفضل ما يمكن لنا تسميته باعادة الاستقطاب بعد أن كان منجذبا بحكم الاستقطاب إلى ساحات المعارك.

❑

(٢) أن وصول الدولتين إلى هذه الدرجة من النجاح فى تطبيق العلم بدقة للوصول إلى منتوجات علمية فاعلة قد أكد للجميع على أهمية عوامل القوة الذاتية وذلك بعد أن كان الفكر السياسى فى البلدان العربية والإسلامية قد بدأ يميل إلى الاقتناع ببعض الآراء الزائفة التى رددتها عن عمالة بعض شخصيات ميكافيلية على

مستويات مختلفة ومتعددة وقد بذلت هذه الشخصيات الميكافيلية كل جهودها فى تضليل الجماهير بما أرادت أن تصوره على أنه عوامل القوة ، وتوازناتها.

❑

ومن سوء حظ مصر أننا ابتلينا فى مرحلة من المراحل ببعض هؤلاء الذين أفرطوا فى التعبير عن أهمية الإلهام والكارزما وما إلى ذلك من صفات شخصية وزوعوها بمعرفتهم على بعض الزعماء ، ثم أفرطوا كذلك فى الحديث عن أهمية عناصر غير متطورة من القدرة على صناعة الأحداث ، وقد ساعد امتداد العمر بهؤلاء على ادعاء الحكمة باثر رجعى ..

ومن المؤسف له أن جرعات الضلال والتضليل التى بثها بعض هؤلاء (بل مازالوا يحاولون بثها) لاتزال متراكمة فى الجسم العربى ولاتزال بحاجة إلى فلترة وديلزة وغسيل أجواف لاخراجها وتطهير الجسم العربى والعقل العربى بالتالى من تأثيراتها الضارة .

وفى ظل غياب المجتمع العلمى وغياب روح البحث العلمى عن المجتمع العام فى بلداننا العربية والإسلامية فإنه يصعب علينا أن نقنع الجماهير العربية أن الوصول إلى التفجيرات النووية قد استغرق كل هذه السنوات يوماً بعد يوم ، وأنه ربما لو نقصت هذه السنوات يوماً واحداً لنقص فى هذه التفجيرات شىء يقضى على الإنجاز نفسه كله لأن العملية العلمية مترابطة جداً وكل جزئية فيها تمت بصلة إلى جزئية قبلها وأخرى بعدها وثالثة عن يمينها ورابعة عن يسارها ، وخامسة تحتها ، وسادسها فوقها وهكذا...

ولكن النسيج العلمى نفسه كفيل بأن يفتح للمتعاملين معه السبيل إلى استكماله ماداموا يمضون فى خطوط مستقيمة .

وسأبسط المسألة إلى حد الاختزال بتذكير الجمهور بما يحدث فى حلهم للكلمات المتقاطعة فإن حل الأفقى كله صوابا كفيل بحل الرأسى كله صوابا كذلك ،وحل بعض من هذا إلى درجة معينة وبعض من ذاك إلى درجة معينه أخرى كفيل أيضا بالوصول إلى الصواب .. ولكن التناثر هنا وهناك لايحل الكلمات المتقاطعة ، وهى بحكم قانونها إما أن تحل وإما ألا تحل.

(٣) الحقيقة الثالثة أن السلاح **التقليدى عنصر كفيل بالقوة ولكن من الممكن للقوة أن تتحقق أيضاً بدون سلاح التقليدى** ، بل ربما يكون السلاح غير التقليدى أقوى بكثير جداً من السلاح التقليدى ، وهاهى التفجيرات النووية تعوض النقص الأكيد (والمعروف) فى امتلاك الدبابات والبوارج والمدرعات والمدفعية بأفضل كثير جداً من شراء أساطيل بحرية وبطاريات مدفعية وحاملات طائرات كما يحدث فى أماكن أخرى من العالم.

وليس من شك أن هناك **عوامل كثيرة كفيلة بتحقيق القوة ولكن العلم هو العامل الأول بلا جدال فيها** ، ومن المؤسف له أن حقد بعض أهالينا على ما تحقق بفضل حرب ٦ اكتوبر من ثروات بعض البلاد العربية والإسلامية التى تحققت كنتيجة لهذا الإنجاز المجيد والخالد بعيداً عن كل أمنيات كسينجر وغيره من مخططى الدول الكبرى (ثم المنبهرين بخبثهم فيما بيننا) قد أنساهم الانتباه إلى الخطوات الممتازة التى تم البدء بها فى هذه البلاد فى سبيل خلق مجتمع علمى قادر على استيعاب العلم وتوظيفه لخدمة المجتمع ، ولنذكر أن نشأة المجتمع العلمى لاتتم فى عام ولا عشرة وإنما تحتاج جيلين على أقل تقدير.

وعلى الرغم من استمراء كثير من ابنائنا الحديث عن العالم العربى بصورة أشبه بوصف الرحالة له منذ قرن مضى إلا أن الحقائق تشير إلى أن المؤسسات العلمية فى الوطن الإسلامى والعربى قد أصبحت بالفعل على الطريق الصحيح وهو طريق تكوين «نويات» و«بؤر» صالحة لانجاز علمى قريب .

وهناك أمران من أبرز الأمور التى ينبغى علىّ أن ألفت الانظار إليها فيما يتعلق بمستقبلنا العلمى والبحثى وعلاقته بالقوة الاستراتيجية فى عالم اليوم:

● **الأمر الأول:** أن أشير إلى أهمية وجود حجم كبير من العلماء الفيزئائيين على سبيل المثال قبل التمكن من النجاح فى خطوة علمية كبيرة (إجراء تفجيرات نووية على سبيل المثال).

ونحن فى الجامعة مثلاً لانبدأ الاحساس بازدهار تخصص معين إلا بعد وصول عدد الأعضاء العاملين فيه إلى عدد معين يسمح بتغطية التخصصات الدقيقة المتعددة لكل تخصص علمى يبدو أمام الناس أنه شيء واحد فحسب ، ثم لابد من قوة بشرية احتياطية تكون كفيلة بتغطية غياب بعضنا حين يسافرون للاستزادة من العلم أو الاستزادة من المادة أو حين يعترى بعضهم ما يعترى النفس البشرية من الابتعاد المؤقت عن العلم والعودة إليه.

وقد حرصت ذات مرة أن أتأمل حياة كل أساتذة تخصص معين فى مصر فوجدت أن أحداً منهم لم ينج من آفة أن يبتعد عن العلم تماما لعدة سنوات حتى ولو ظل فى موقعه الوظيفى أو العلمى ، وقد يعود بعضهم إلى العلم وقد لايعود ، أو قد يعود إلى هامشه على الأقل ...

هكذا يمكن لنا أن نفهم أن زيادة عدد الباحثين والعلماء فى كل تخصص علمى هى الصمام الوحيد المتاح للتغلب على النقص الذى يعتور هيئات الباحثين للاسباب التى ذكرناها ، ولأسباب فسيولوجية أخرى كالانشغال بالزواج والحمل وتربية الابناء، ولأسباب سيكولوجية ليست بعيدة عن الاحتمال كالإحباط والنفور من رئيس القسم فى بعض الأحيان ، ... الخ).

ولاننسى - على سبيل المثال أيضا - أن نشير إلى أن بعض التخصصات العلمية فى مصر أصبحت « مؤنثة » تماما إلا قليلا بحكم عوامل تاريخية كثيرة جعلت بعض الأقسام فى كثير من الكليات والتخصصات تحظى باقبال السيدات ثم احتكارهن لها .. ومن هذه الأقسام على سبيل المثال الأقسام الاكاديمية فى كليات الطب وأقسام اللغات الأوربية فى كليات الآداب.

فاذا أضفنا إلى هذا كله الأنزفة المستمرة إلى الخارج وإلى الداخل وإلى مجالات أخرى متصلة بالسوق اكثر من اتصالها بالعلم أدركنا أننا لاتزال فى حاجة إلى زيادة عدد « المواليد » الذين ندخلهم حلبة البحث العلمى للتغلب على زيادة عدد « المفقودين»...

ومن المهم أيضاً أن ندرك أن قلة الانسحاب من المحيط العلمى ستكون هى العامل الأول فى تنظيم أسرة البحث العلمى وتقليل أعدادها الزائدة التى تحسب الآن على العلم بينما هى لاتشتغل به .

● **الأمر الثانى** : هو حجم الاستثمارات فى البحث العلمى وهى جوهر مشكلة البحث العلمى فى مصر على سبيل المثال حين لاتجد الفكرة (مثلاً) من يستغلها.

ولن أفيض فيما استسهلت أقلام كثيرة فى الخوض فيه حول إجمالى الموازنات المخصصة للبحث العلمى ونسبتها وما إلى ذلك فان ظروفنا التاريخية لاتخفى على أحد منا ، ولا ينبغى لنا ربط الإفادة بما أصبح متاحاً من فكر بتحقيق أقصى درجات الإفادة، أو بتوفير الظروف الكفيلة بتحقيق أقصى درجات الافادة ذلك أن الحياة قد علمتنا أن ما لايدرك كله لايترك كله.

ويبدو لى بكل أسف أننا فى كثير من مؤسساتنا أصبحنا نرفع شعاراً واحداً فقط هو أن ما لايدرك كله لابد وأن يترك كله ..

أقول هذا وكلى أسف أنه كان بوسعنا ولا يزال أن نستغل كثيراً من الأفكار العلمية التى توصلنا إليها رغم وعورة الظروف ، ولكننا نبخل على أنفسنا بهذا ، وكأنه ليس من حق الفقير أكل التفاح والكافيار إذا أتيح له بجهده .

ولو كان الأمر بيدى لأسست بمعونة من الحكومة بنكا للعلم تضم إدارات الائتمان فيه ودراسة الجدوى كثيراً من العلماء القادرين على البت فى مدى إمكانية الافادة من بحث تطبيقى وتمويله بالقدر اللازم لتنفيذه على مدى التجريب ، ثم على مدى انتاج الجملة.

وحينئذ ، وبفضل جهود متوازية فى مجالات عديدة فقد تتحقق لمصر (أو لمثيلاتها من الدول الإسلامية) القوة التى تجعلها عنصراً فاعلاً فى الحرب البارزة فى القرن القادم وهى الحرب المتجمدة.

ولست أدرى هل أسست الولايات المتحدة الأمريكية البنك الكيمائى فى الماضى لهذا الغرض ؟ أم أن اسمه كان مجرد اسم ! لست أدرى إلا أن هناك بنكا فى الولايات المتحدة اسمه البنك الكيمائى .. وربما نحن فى مصر أكثر حاجة إلى وجود مثل هذا البنك ! .

عبرت الترتيبات الصينية التى تمت في نهاية ٢٠٠٢ عن التقدير الاستراتيجى العميق الذى تتمتع به أجهزة الدولة، والحزب الشيوعى، والحكومة الصينية، ويبدو بكل وضوح أن حجم التقدير الاستراتيجى الصينى للعالم العربى والإسلامى يفوق بمراحل حجم الإدراك العربى والإسلامى المقابل لأهمية هذا التقدير، فضلا عن أنه من ناحية أخرى يفوق التقدير الاستراتيجى العربى والإسلامى نفسه، على الرغم من أن الفائدة العائدة على العرب من توثيق وتنمية العلاقات مع الصين ربما تفوق الفائدة المتوقع للصين أن تحققها.

والشاهد أن حركة التاريخ قد أثبتت لنا على مدى تجارب عديدة فى الماضى القريب والبعيد على حد سواء، أن القوى الكبرى المؤثرة فى سياسات العالم لا تخلق نفسها بنفسها، ولا برغبتها فحسب، ولكنها كثيرا ما تحتل هذه المكانة بناء على حاجة ملحة من المستضعفين فى الأرض إليها أو إلى وجودها أو إلى تنامى تأثيرها فى السياسة الدولية.

والحاصل أنه يستحيل على أى مراقب أن ينكر مدى مواءمة بل وجاذبية فكرة التوجه إلى الصين فى ظل الظروف الحاضرة التى تعيشها القضايا العربية والإسلامية وفى مقدمتها بالطبع قضية فلسطين.

ومع هذا فإن هناك أقداراً من التوجس قد تسيطر على أحاسيس الرأى العام بمدى جدوى وفعالية هذا التوجه إلى الصين، بل ربما بمدى مشروعية (أو شرعية) هذا التوجه، ولا يمكن لنا أن نمضى فى الدعوة إلى هذا التوجه دون معالجة كافية لهذه الهواجس.

❑

والحاصل أن بالإمكان أن نلخص أسبابا وجيهة لمثل هذه التوجسات التى قد تبدو فى نظر البعض نوعا من أنواع التزيد فى التخوف بلا مبرر، وقد تبدو فى نظر الآخر نوعا من أنواع التنظير غير المبرر لذرات أو جزئيات غير مرئية فى الفلسفة السياسية.

ومبلغ ظنى أنه من المفيد ومن الضرورى أيضاً أن نتصارح مبكرا بمثل هذه الهواجس قبل أن ننطلق إلى تزكية أو تدشين إطار واسع ومطلوب لنمط جديد من علاقات دولية يتطلع إليها المسلمون والعرب لتخفف عنهم من سعير وغلواء بطش ظاهر وباطن يتنامى مع الأيام على يد قوة عظمى كانوا ولا يزالون يظنونها حليفا، ولكن عدوهم التاريخى أصبح يتباهى بأنه يسيطر على مقدرات الأمور فى كل مؤسسة من مؤسساتها التى تملك سلطة إصدارقرار يتعلق بالعدوان الشرس على أرض وشعب فلسطين.

وسأتناول على سبيل المثال ثلاثة من هذه الهواجس:

(١) أول هذه الهواجس **الخوف** ضعيف الاحتمال **من أن تكون** الصحوة الكبرى التى تشهدها الصين اليوم **بمثابة مرحلة قبل نهائية من أفول نجم هذه القوة**، ويغذى الشعور بمثل هذه الفكرة ما حدث فى الاتحاد السوفيتى نفسه - مع الفارق - من تشجيع وتصفيق لسياسات المصارحة والمكاشفة وإعادة البناء وإذا بإعادة البناء تتوقف عند الهدم والتفكيك فحسب.

ويغذى الشعور بمثل هذه الفكرة أن أحدا لا يضمن الأطر الكفيلة بالحفاظ على حجم النجاح الذى تحقق. فمن الممكن أن يقفز إلى مواقع المسئولية مَنْ هم أقل كفاءة من أصحاب الكفاءة الفذة التى أوصلت الصين فى السنوات الأخيرة إلى هذا التفوق والاتزان، وهو أمر وارد، غير أن أهم صمام أمن كفيل بالتغلب عليه هو أن يحس العالم وأصدقاء الصين على وجه الخصوص بأن القوة العظمى البازغة فى هذه المساحة الشاسعةمن اليابسة تعلى بالفعل من شأن المؤسسات، وأنها تتحسب بالقانون والنظم والمنظومات لعدم الاعتماد الكلى على استمرار وجود الشخصيات العبقرية التى وجدت بالفعل فى لمحة من لمحات الزمان وأثمر وجودها هذا الإنجاز الضخم.

ومن حسن الحظ أن الخطوات التى اتخذها الحزب مؤخرا بدفع الوجوه الجديدة وتخلى الوجوه القديمة ، واتمام هذا التحول عبر فترة انتقال تنم بكل وضوح عن أن روح المؤسسة تسيطر تماماً على الساسية الصينية.

(٢) ثانى هذه الهواجس هو الخوف من أن تنجح أجهزة الولايات المتحدة الأمريكية نفسها (أو قوى شبيهة) فى أن تشعل فى المنطقة العربية الإسلامية بعضا من الاتجاهات الأصولية التى تركز فى أصوليتها على حرمة التعاون مع الشيوعية ومعتنقيها باعتبارهم من غير أهل الكتاب، وهو أمر وارد بالطبع، وبخاصة أن هذه النبرة قابلة لأن تعلو وبسرعة، ولن يكتشف أصحابها أنفسهم أنهم يؤذون أوطانهم بها، وإنما سيكون ظنهم هذا بمثابة يقين راسخ لا يقبل الجدل ولا الحوار، شأنهم فى هذا شأن كل أصحاب العقائد المتحمسين الذين يصعب جدالهم، بل إن نمو مهارة أعدائهم الحقيقيين جعلتهم الآن لا يمانعون فى أن يؤدوا أدواراً تصب فى مصلحة أعدائهم الحقيقيين، مبررين ذلك بوعيهم التام لأن المصالح قد تتلاقى دون أن يعنى هذا فسادا فى النبرة أو التصرف الذى يندفعون إليه دون حساب جيد للجوانب الأخرى من القضية التى هم بصددها.

وليس هذا الهاجس بقليل الخطر فى ظل تنامى النزعات الخطابية، وفى ظل معاناة أجيالنا الجديدة من قصور التعليم على مستويات متعددة، وفى ظل غياب ثقافة فقهية حقيقية، وفى ظل عجز واضح عن التصدى الفكرى الدائم والمتواصل لمثل هذه الآراء، بل إن الأمر يزداد صعوبة حين تعلو النبرات لتهدد الهادفين إلى المصلحة بشعارات **التخوين** من ناحية، وهى تهمة **صعبة** ، **والتكفير** من ناحية أخرى، وهى فى المقابل تهمة **قاتلة**.

(٣) وثالث هذه الهواجس يرتبط ارتباطا مباشرا بغياب الثقافة الصينية عن الوجدان العربى، ذلك أنه يندر أن تجد مواطنا عربيا قرأ رواية صينية أو عملا أدبيا صينيا شعرا أو دراما، أو وهو ينقل أو يتأثر بعمل فنى صينى، ومن ثم فإن التوجه إلى الصين معرض لأن يصبح توجها مرحليا وغير ذى جذور.

وصحيح أن هناك تراثا شرقيا مشتركا بين الصين وبين العرب، وصحيح أن هناك مسلمين صينيين يرتبطون بأرض العروبة والإسلام بوشائج روحانية، وصحيح أن الإسلام فى الصين ليس دينا فحسب، ولكنه أيضا قومية، وصحيح أن هناك أقساما كبرى لدراسة اللغة العربية والآداب العربية فى الجامعات الصينية، إلا أن العكس للأسف غير صحيح، وهذا هو ما ينبغى أن نلتفت إليه بالاهتمام، ويستلزم هذا البدء بالاعتراف!! فدراسة الصينية فى البلاد العربية محدودة، والذين تعلموا فى الصين ندرة إن لم يكونوا أقرب إلى العدم، والأعمال الأدبية والفنية الصينية لم تلق «النقل» إلى اللغة العربية ولا نقول إنها لم تلق الانتشار والذيوع، فتلك خطوة تالية لم تتحقق الخطوة السابقة عليها.

بل إن هناك ما هو أدهى من هذا كله، وهو أصداء الثقافة التكنولوجية، فليس بوسعنا نحن الداعين إلى التوجه إلى الصين أن نزعم أن خلفيات متاجرنا وصناعنا ومؤسساتنا ولا حتى مستهلكينا تدرك شيئا عن الإنتاج الصينى أكثر من كونه متاحا بأسعار معقولة ومنتجا بكميات غزيرة، ولكننا لانستطيع ـ على سبيل

المثـال ـ أن نميز بين مصنع صـينى وآخـر على نحـو مـا نميز بين تويوتا وهوندا ومازدا، أو بين المرسيدس والبى إم والفولكس، أو بين الرينو والبيجـو والستروين، أو بين السونى والناشيونال، أو بين الفيليبـس والنوكيا.. وهكذا.. إنما نحن فى متاجرنا نستقبل كل ما هو صينى بنظرة أحادية «المنظور» حتى الآن، فكله صينى فحسب، ولا نستطيع بعد أن نعرف أن فى الصين كما فى بقية الدنيا مستويات متعددة من الجودة والإتقان، وكأننا نظن المصانع الصينية مصنعاً واحداً فحسب.

❑

وعلى كل الاحوال فان التوجه نحو الصين أقوى من أن يتبدد بمثل هذه الهواجس، ولكنـه يتطلب قـدراً من الجـهـد الذى ينبـغى علينا أن نبـذله من أجل إقناع أنفسنا أمـا الصين فـهى مقتنعة، ولو أننا لم نتوجـه إليها اليوم فسنتوجه إليها غداً .... ويبدو أنها تعرف ذلك.

حــوار مــع بريماكــوف فى تونس

كـان رئيس الوزراء السوفيـتى بريمـاكوف أحـد المتـحـدثين الرئيسـيين فـى الندوة السنوية التى أقامـها التجـمع الدستورى التونسى فى الذكرى الخامسة عشرة للتحـول الديمقـراطى الذى قاده الرئيس التـونسى زين العابدين بن على، وقـد دارت أحـاديث الندوة ومناقشاتها عن التحديات الجيواستراتيجية فى عالم اليوم.

وعلى عـادة مثل هذه الندوات فإن المقدمات التى يقدم بها كل متحدث لإسهامه البحثى تطول حتى تلتهم معظم وقت البحث، كما أن الصياغات التقليدية تطغى على مـا يريد المتـحـدث أن يجـاهر به من آراء، وقـد حـدث هذا بالطبع مع رئيس الوزراء الروسى الأسبق، ومع هذا فإنه كان قادرا على أن يعبر بكل وضوح عن إيمان عميق بقدرة الولايات المتحدة الأمريكية على قيادة العالم، وهو لم يقل هذا المعنى بصراحة على هذ النحو، لكنه جعل مستمعيه يتوصلون إليه من خلال أحاديث مطولة عن أنه لم تكن هناك قوى عظمى ولا دولة عظمى، وكأنما مثل هذا الحديث قادر على أن يغير حقائق التاريخ.

وقد ذهب بريماكوف يكرس هذا الاتجاه من خلال أحاديث أخرى عن أدوار أخرى تضاف إلى الدور الأمـريكى تتمثل فى أدوار اليابان وألمانيا وفرنسا وروسـيا ومـا إلى هذا.

وقد بدا لى بكل وضوح أن بريماكوف بعد الخبرة الطويلة فى البيروقراطية السوفيتية المتباهية، ثم فى البيروقراطية الروسية المتواضعة من بعدها، أصبح يفضل إمساك العصا من الوسط فى كل قضية، بل إنه أصبح حريصا حتى على التحرز من أن تنسب أقواله إلى المجتمع الذى ينتمى إليه، ولهذا فإنه تعمد أن يصحح للمترجم الذى ترجم أحد حواراته قوله «نحن نرى» إلى «أنا أرى»، وقال هذا بلغة عربية واضحة الانتماء إلى العامية المصرية المحببة.

❑

ويبدو بريماكوف حريصا كل الحرص على عدم إغضاب الولايات المتحدة الأمريكية وساستها الجدد وسادتها القدامى، فهو يتبنى وجهة النظر الأمريكية تجاه **العراق**، وإن صرح ببعض محاولات تبذل لفرملة هدير الغضب والسلطة الأمريكيين، كما أنه يتبنى الرؤية الأمريكية تجاه **الإرهاب**، بل إنه أكثر من هذا يتبنى الرؤية الأمريكية الجديدة تجاه **الإسلام** بكل صوره، وهو لا يكلف نفسه الدفاع عن الإسلام والمسلمين الذين عاشوا من حوله فى مصر والاتحاد السوفيتى وغيرهما، لكنه يؤثر الاندفاع مع النزق الإعلامى الأمريكى، وإن كانت عباراته المنحازة قد استفادت تماما مما يوفره لها البرود الروسى الشهير من تحفظات وقدرة على التراجع.

ويطالب بريماكوف العراق بأن تلتزم تماما بقرارات مجلس الأمن الدولى، لكنه فى الوقت ذاته يشير إلى قدرة الصين وروسيا وفرنسا على كبح جماح الولايات المتحدة وبريطانيا فيما تريدانه من قرارات فى مجلس الأمن.

وحين يلمح بعض الصحفيين لبريماكوف بما يتردد عن اتفاقات سرية بين أمريكا وروسيا حول اقتسام بترول العراق فإنه يشير بقدر من الفخر الهادئ إلى أن روسيا أصبحت هذا العام أكبر مستخرج للبترول فى العالم، وكأن فى هذا ما يكفى لتبرئة نوايا دولة كبيرة لا تزال بحاجة إلى مصادر أخرى للطاقة من أراضى ليست بعيدة عنها.

ولم يكن حديث بريماكوف عن الأحوال الداخلية الروسية باعثا على قدر أكبر من الأمل فى عقلية قادرة على اختراق المشكلات، فقد آثر بريماكوف أن يصور بوتين والنظام الروسى فى صورة الحمل الوديع الذى لا يستطيع شيئا تجاه تعنت زعيم الشيشان، بل إن بريماكوف تبنى رأى بعض المسئولين الروس حول إشراف الزعيم الشيشانى بنفسه على عملية احتجاز الرهائن واتصاله بهم، وبناء على هذه المقدمات فإن بريماكوف أصبح يرى فى تصرف بوتين ما يمكن أن يوصف بأنه التصرف الطبيعى أو الصواب الأوحد فى هذه الحالة.

وعند هذا الحد وجدت نفسى أسأل الرجل عن الإجراءات الوقائية، وعن يقظة الأمن، وإذا به كعادة البيروقراطيين المخضرمين الذين يتمتعون بقدر من الحس السياسى يجهض السؤال إجهاضا حميدا بأن يعترف بكل وضوح بأن هذا هو السؤال، وأن هذا التهاون أو الإهمال كان هو الخطأ الأكبر.

❑

وطيلة الحوار تمثل لى بريماكوف فى صورة **المحلل اللاحق** الذى يؤثر أن يتأمل الأحداث على نحو ما حدثت، ويؤثر أن يتبنى رؤية وجهة صاحب السلطة أو صاحب الانتصار، فهو من الذين يؤمنون بالنجاح فى حد ذاته، وكأنه لا يدرك أن بعض النجاح يكون أخطر من بعض الفشل، وأن بعض الفشل يكون أجدى من النجاح المطلق.

ومع هذا فإن بريماكوف على الرغم من تقدم سنه، وعلى الرغم من إسهامات متعددة فى مجالات مختلفة، لا يزال يتمتع بحضور سياسى، ولياقة ذهنية عالية، ومع أنه لا يرقى إلى شجاعة يلتسين وجسارته، ولا إلى ذكاء بوتين، فإنه بكل تأكيد كان قادرا على أن يتفوق على بريجنيف لو أن مقارنة كانت قد عقدت بينهما فى يوم من الأيام، ولو أن الأقدار اختارته لرئاسة الوزراء قبل جورباتشوف لكان قادرا على أن

يستبقى الاتحاد السوفيتى كقوة عظمى تدور فى فلك الولايات المتحدة الأمريكية، بدلا من أن يتوزع ذلك الاتحاد إلى أقمار صغيرة يدور كل منها فى مدار، ولكنه فى كلا الحالين متشبع بقدرة الغطرسة الأمريكية على أن تفرض رؤيتها الصائبة،، وغير الصائبة من باب أولى.

ولهذا فإنى أرى أن من الواجب على القوى السياسية فى العالم الثالث والدول الأوروبية الأقرب إليه أن تعاود التفكير فى جدوى فكرة التوازن من أساسها، ذلك أنه بفضل مناقشات ومداولات الندوة التونسية التى رعاها الرئيس التونسى بنفسه ووجه لها خطابا مهما تلاه الدكتورحامد القروى النائب الأول لرئيس التجمع الدستورى، ظهر بكل وضوح أن فكرة التوازن لم تعد قادرة على أن تقدم نظاما ديناميا قادرا على التقدم بالبشرية إلى الأمام، وإنما أصبحت الطاقات المتولدة تعانى من بقايا القوى الدافعة للبشرية إلى التقدم، وقد تحولت هذه القوى إلى محاولة الترتيب الطبيعى الكفيل بإظهار صورة الاتزان السلبى الذى يكفل بقاء الأمور على ما هى عليه، وهى الفكرة النقيضة للفكرة التى يقوم عليها وجود الإنسانية نفسه، ذلك أن البشرية حسب معتقداتنا وجدت لتمارس الصواب والخطأ، لا لتكف عن التجربة، ووجدت من أجل إحداث الخطوات الكفيلة بقيادة خطواتها فى اتجاهات كفيلة بالتجديد والتعمير والتحديث والبناء.

ومن حسن الحظ أن هذه الندوة السنوية التى انعقدت أربع عشرة مرة حتى الآن تقام فى إطار الاحتفالات بخطوة دستورية جريئة ومبرأة من الدماء والسجون ونفى الآخر قادها الرئيس التونسى منذ ١٥ عاما، فى وقت كانت تونس أحوج ما تكون فيه إلى مثل هذه الخطوة، وقد استطاعت تونس من خلال هذه الخطوة أن تعيد كثيرا من الأصول الكفيلة بتقوية قدرتها على التحديث من خلال معادلة صعبة ومتزنة، لكنها - وهذا هو الأهم - قادرة على دفع المجتمع إلى الأمام. ولهذا السبب لم يكن بدعا أن

يكون حديث الوزير المثقف البارز الصادق رابح هو أكثر ما شدني في هذه الندوة حين تمكن في هدوء شديد من أن يلفت نظر الزعامات السياسية في بلاده وحزبه ومعهم بعض المشتغلين بالسياسة في الدول الأخرى إلى بعض التوجهات الحديثة في قضايا التوازنات، وهي توجهات كفيلة بخلق أدوار فاعلة في **عصر يرحب بالفاعلية رغم الظنون، التي تطغى، بانتهاء عهد المشاركة وسيادة فكرة العزف المنفرد.**

قبل أن ينتهي عهد يلتسين شهدت روسيا مناوشات بين الرئيس وبين البرلمان، وكان كثير من المحللين يظن هذه المناوشات كفيلة بضياع هيبة روسيا وربما بضياع الدولة نفسها، ولكنى كنت أجاهر برأيى وهو أنه على عكس ما توقع كثير من المراقبين فان روسيا تتعافى، وأن ما يحدث هو دليل على **الخروج من شرنقة المرض إلى حياة الصحة**، وكنت أرى فيما يحدث دليلاً على انتهاء حقبة خداع الجماهير بتوافق السلطات، وبداية دنيامية العمل السياسى، وهى دنيامية خصبة كانت روسيا تفتقدها ، ولأول مرة فى التاريخ المعاصر أصبحت الخلافات بين البرلمان ورئاسة الدولة سجالاً لاكثر من مرة يتناوب الجانبان الانتصار بما يملكان من قوة على الاداء وقدرة على المناورة ، فالرئيس يحل البرلمان حين يستطيع ، ويحاصره حين يستطيع ، ولكنه أيضا ينحنى له حين لايكون أمامه إلا الانحناء له.

وعلى الرغم من كل المآخذ التى كانت تؤخذ على الرئيس الروسى يلستين وسياساته فإنه ظل يتمتع بقدرة العودة إلى الصواب والرجوع عن الخطأ ، فهو يقيل رئيسا للوزراء لم يوافق عليه ولم يبشر به أحد غيره ، وهو يحاول أن يستعيد رئيسا آخر لم يقله غيره ، وهو الذى يبادر فى جميع الأحوال بطرح البدائل ، وحين يكون معرضا لأن يتهم بالتخبط من جراء هذا كله فانه لايرتعد وإنما يستبق الآخرين ويرعد !!

وهكذا فانه كان يستمر في الأداء على الرغم من أن صحته تبدو وكأنها لن تساعده وعلى الرغم من أن ظروفه لن تساعده ، وعلى الرغم من أن الذين يظهرون أنهم حلفاؤه لن يساعدوه ، ولكن شعبه على الرغم من ذلك كان يحس باجتهاده الواضح من أجل الوصول إلى الصيغة المثلى الكفيلة بتجاوز المشكلات التى لم تكن وليدة اليوم ولا الأمس القريب فقط وإنما هى امتداد طبيعى لمرحلة الجمود والشلل التى انتهى إليها الاتحاد السوفيتى فى عهد بريجنيف بعد مراحل ممتدة من التألق والنجاح فى عهدى ستالين وخروشوف ولينين من قبلهما.

ورأيى أن روسيا كانت قد بدأت تتعافى بفضل وجود هذا الرأس الذى كان يبدو غير قادر ولكنه فى اللحظات الحاسمة لم يكن يتردد فى أى قرار يرى فيه انقاذاً لاقتصاد بلده سواء كان هذا بالاندفاع إلى التحرير الاقتصادى أو حتى بالتوقف فيه !! وسواء أكان هذا بحماية العملة الوطنية أم بالتضحية بها .. وتكثر التحليلات التى تهئ للناس أن الصواب سهل بينما الوصول إلى أقل الأخطاء خطراً هو غاية ما يتمناه المسئول فى نظام يعانى كل هذه المعاناة التى كانت روسيا تعانيها .... ولكنها على الرغم من كل شئ نجحت فى أن تتعافى .

❑

وفى رأيى أن القارئ أو المتأمل للأزمة الروسية فى بداية القرن الحادى والعشرين لايستطيع أن يغفل العناصر الرئيسية الثلاثة فى تنامى هذه الأزمة إلى الحد الذى وصلت إليه هذه الأيام .

(١)

أما الأزمة الأولى فهى **غياب القيم الخلقية** عند طائفة كثيرة من الجيل المتصرف فى الأمور فى كافة المؤسسات الروسية .. وعلى الرغم من أن الشعب

الروسى شعب طيب وأصيل ومنتج ومسالم، كما أن جذور حضارته تمتد إلى قرون طويلة، ولا تزال الشواهد عليها قائمة، إلا أن الحاجة إلى القيم الخلقية تظل متجددة مع كل خطوة من خطوات الإصلاح ، وهى مطلوبة أيضاً بالحاح فى كل خطوة من خطوات إعادة البناء ، وإلا فان البناء نفسه لن يستعاد ، ولسنا ننكر أن كل إنسان طبيعى فى الشعب الروسى قد عانى الانتقال المفاجئ من الحالة الغازية إلى الحالة المتجمدة ثم إلى الحالة السائلة وهو ما حدث عند الانتقال من القيصرية إلى الشيوعية إلى الجوربا تشوفية .. وليس من الصعب علينا أن ندرك أنه يصعب على الانسان السوى أن ينتقل من عبادة المبدأ إلى عبادة الدولار دون أن يُفرط فى العبادة الجديدة سواء كان هذا «الإفراط» عن اقتناع أو عن طموح أو لأنه من طبائع المعبود الجديد .

ولو أن النظام القيمى الموازى للتغيرات السياسة كان قد هيأ الناس لعبادة الدولار لانتبه الناس جميعا إلى اللصوص والمرتشين والأفاقين وتجار السوق السوداء وأرباب العمولات ووضعوهم فى حجمهم المناسب الذى لايتيح للفساد إلا هامشاً ضئيلاً، ولكن «الجوربا تشوفية» للأسف الشديد صورت للناس أن المصارحة والمكاشفة ستكفل التغيير ، واستنامت الجماهير إلى الاعتماد على المصارحة، وكأنها كفيلة باعادة البناء بينما الحقيقة أن التغيير عملية إيجابية (وليست سلبية) كما أن المصارحة مطلوبة بالحاح فى كل خطوة من خطوات إعادة البناء ، وإلا فان البناء نفسه لن يستعاد ..

وللأسف الشديد فان نتائج أفكار جورباتشوف قد تقلصت إلى قدر كبير من الهدم دون البدء فى إعادة البناء ، وقدر ضئيل من البناء ، وقدر أكثر ضآلة من الاستفادة من المصارحة .. وبالطبع من النقد الموجه إلى السياسات التنفيذية التى تمضى ولابد لها من أن تمضى فى الطريق المتاح، لأن الحياة نفسها تمضى.

(٢)

أما الأزمة الثانية التى تواجهها روسيا فهى غياب الفعاليات القادرة على التغيير ، وربما تمثل هذه الازمة بالذات أهم مشكلات الشعوب حين تواجه أزمات الانتقال التى تعقب قرارات التغيير أو اختلاف التوجهات أو الهزائم العسكرية أو الازمات الاقتصادية.

وسأذكر القراء بمثل بسيط يعرفونه جميعا هو اعتماد القوات المسلحة المصرية بعد هزيمة ١٩٦٧ على المجندين من خريجى الجامعات الذين كانوا من أبرز جنود النصر فى حرب ١٩٧٣ المجيدة ، وقد كان هؤلاء بمثابة الكتلة الكبيرة فى العنصر البشرى الذى استطاعت الأمة أن تنتقل به من حالة الهزيمة إلى حالة الانتصار.

وقد علمتنا دراسة النظم الإدارية ودراسة التاريخ أنه بدون الاعتماد على كتلة كبيرة من عنصر بشرى قادر على أداء حقوق التغيير والقيام بها تفشل معظم سياسات التغيير تماماً .

ويبدو واضحاً أن روسيا لم تنتبه بالقدر الكافى إلى تخريج أجيال جديدة قادرة على تحقيق الإنجازات فى حقول الانتاج بعيداً عن الشعارات والواجبات الحزبية والأمراض الاجتماعية التى تنشأ بعد طول تولى حزب واحد للسلطة وجمود بل وتآكل ثم تحرض وتدمر كوادر هذا الحزب .

ولو أن روسيا كانت قد بدأت فى هذه الخطوة منذ ١٩٨٩(على سبيل المثال) لكان عندها اليوم خريجو عدد كبير من دفعات كاملة من الجامعات تستطيع أن تسد بهم الفراغات فى كل مواقع العمل الحكومى فى جميع أنحاء الدولة ، ولكن الواضح أن روسيا قد اضطرت إلى البقاء فى أسر القديم، وأنها ظنت أن القديم بحكم خبرته قادر على تحويل القبلة مع أن هذا ضد طبائع الأشياء.

وعلى الرغم من هذا كله فان التعافى بات واضحاً حين اقتنعت روسيا أن وجود رئيس وزراء شاب ليس كافيا بمفرده للتحول المطلوب .. وظهرت الجوانب الكثيرة التى قصرت الرؤية الفوقية عن الالمام بها .. وهكذا أصبحت روسيا وقد أو شكت أن تصل بالفعل إلى الحالة التى يقال عنها فى أدبيات التاريخ إن أولى مراتب الكمال هى الشعور بالنقص.

(٣)

ونأتى إلى الأزمة الثالثة التى تواجهها روسيا اليوم وهى انفتاحها الزائد والمبكر على العالم ، وإنى لاعتقد أن روسيا فى حاجة إلى أن تجتهد لفترة خمس سنوات فى البقاء بعيداً عن أعين العالم التى لاترحم، وبعيداً أيضاً عن تلك الأيادى التى تأتى زاعمة أنها تقدم الخير بينما هى تنهب ما فى روسيا من تراث إنسانى متمثل فى الأعمال الفنية بل فى المعادن النادرة ، بل فى المواد الخام على صعيد ثالث ... ولربما نذكر على سبيل المثال ما يعرفه المشتغلون بالطباعة من أن سعر الورق فى السوق العالمى ظل ثابتاً فى السنوات السابقة لمدة طويلة نسبياً بحكم توافر المخزون الروسى من لب الورق ... حتى نفد هذا المخزون الضخم كله فارتفع السعر العالمى للورق فجأة !!.

ومن العجيب أن معاملة الولايات المتحدة الامريكية لروسيا لم تختلف عن معاملتها للدول الصغرى ، فلاهى ساعدتها على بناء مؤسسات خدمية ولا على تجديد مصانع ولا على تطوير تكنولوجيا... وإنما اكتفت الحكومات والإدارات الامريكية المتعاقبة بأن قدمت لروسيا صورة مكررة من المعونة الأمريكية المعروفة التى تقدم إلى مؤسسات أمريكية لكى تنفق على خدمات أمريكية وهمية وذلك من قبيل تأليف كتاب عن تحول روسيا إلى اقتصاد السوق، أو عقد ندوة عن حقوق الانسان... وما إلى ذلك من

التعسف الامريكى فى تقديم المعونة الكفيلة بتفاقم الأزمات فى البلاد التى تقدم اليها ، أو بحل المشكلة بمشكلة أضخم منها.

ولعل أصدق تصوير لطبيعة هذه المعونات هو أنها لاتعطى أبداً لمن يستحقها فعلاً ولا حتى ظاهراً حتى إنهـا لاتقدم لمتسولى الشوارع، الذين لا يصعب على أحد معرفتهم، مالاً ولا طعاماً ولا ثيابا ولا دواء ولا غطاء وإنما تعطيهم لافتة جميلة من البلاستيك الامريكى مكتوباً عليها بلغة أمريكية وبحروف امريكية اسم المتسول ورقمه تحت عنوان « مشروع برنامج المعونة الأمريكية لحصر المتسولين فى شوارع العاصمة» .

وبين كل أسبوع وآخر يأتى الخبراء الامريكيون ليقيموا فى الهلاتن والشراتن وليطمئنوا على أن اللافتات فى أماكنها على رقاب العباد ، ولكن ضميرهم الحى مع هذا كله لايمنعهم من الاعتراف فى تقاريرهم للحكومة الأمريكية بأهمية وضرورة وحتمية السرعة فى تغيير البلاستيك الذى صنعت منه اللافتات لأنه أصبح يصاب بالقذارة بسهولة !! .

وفى نهاية كل عام ينعقد مؤتمر ضخم تتلى فيه بحوث مستفيضة تناقش قضايا من قبيل مدى النجاح فى مشروع برنامج المعونة الامريكية لحصر المتسولين فى شوارع العاصمة ، ولا يجد الباحثون حرجاً من أن يشيدوا بالنجاح العظيم الذى حققه المشروع وأن يطالبوا بالبدء فى المشروع التالى وهو فتح الباب أمام الراغبين فى الاستفادة من المشروع، أى اولئك الذين يريدون أن يحصلوا على لافتة مجانا لأن اللافتة عند ذاك سوف تصبح بمثابة الرخصة التى تمنحها الدولة العظمى لممارسة مهنة ممنوعة بحكم القانون فى عاصمة دولة عظمى أخرى .. ولكن الدولة العظمى الرحيمة تتيحها لأنها حريصة على أن تصور نفسها أحنّ على الشعوب وحقوقها من حكامها .

وليس هذا بغريب على الحضارة الأمريكية التى سمحت فى الثلاثينات بنشأة «الاتحاد القومى للجريمة ، ليأخذ مكانه إلى جانب كل الاتحادات والنقابات وليكون بمثابة النظير لنقابة المحامين والأطباء ولنادى القضاة ولاتحاد الصناعات ... الـخ وأرجو ألا يندهش القراء من هذه الحقيقة التى ربما يقرأونها لأول مرة .

❑

وعندى أن على روسيا أن تنتبه فى سرعة إلى ضرورة قطع هذا الحبل السرى الذى هو كفيل بتدمير كثير من الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية فى دولة هى أحوج ما تكون إلى هذه الإصلاحات بعيداً عن زيف المعونات الأمريكية التى تنتقص من الكرامة، وتضاعف من الاستكانة، ولا تضيف إلى المشكلات القائمة إلا أبعاداً جديدة .. ومع كل هذا يظل الرئيس الروسى (أياً من كان) دائما وأبداً فى حاجة إلى صورة صحفية يعانق فيها الرئيس الامريكى (أياً من كان) وهما يبتسمان !! .

بانتـقـال السلطة من جـيل الآباء إلى جـيل الأبناء فى الأردن والمغـرب وسـوريا والبحرين وقطر أحست الجماهير العربية بنوع من التغيير فرضه القدر فى هدوء، كما أحست بأن رياح التغير لم تكن بعيدة وإن جاءت فى وقتها المناسب دون عواصف أو زوابع وهكذا بدأ عالم عربى جديد يتشكل فى هدوء وبدون ضجيج، وبدون ادعاء أبوة أو ريادة للاتجـاهات الفكرية التى أرهقت الشعوب دون أن تقـدم المقابل، وبعيداً عن صراع الأيديولوجيات والمعسكرات والتحالفات والزعامات، وبدون أناشيد أو قصائد أو شعارات وأعلام طاغ.

ومن نعم الله سبحانه وتعالى أن الخطوات التنفيذية فى هذا الصدد وفى هذا الإطار تمضى إلى الأمام بطريقة هادئة لكنها حثيثة.

ومن حسن الحظ أن ملامح العالم العربى الجديد ملامح حقيقية ومرتبطة بجذور الماضى والواقع والقيم السماوية الرفيعة، بل ومشتبكة بالمستقبل العالمى الذى تبلورت صورته الكلية لكل الناظرين ، ويتضح لكل مراقب مدى تأصل وتماسك هذه الملامح، وذلك فى مقابل الملامح الهشة المصطنعة التى حاول منظروها فرضها وظنوا أنهم قادرون على هذا الغرض فى غفلة من الزمان، وكانت النتيجة معاناة العالم العربى

من الانقسام ثم من الهزيمة التى لايزال ندفع ثمنها ، بل مازالت بعض بومات سوداء القلب امتد بها العمر تحاول - دون حياء - أن توهمنا أننا نعيش السواد بسبب غيابهم عن صياغة الآراء ويتناسى هؤلاء حقيقة مسئوليتهم عن أزمة العالم العرب المعاصر، بل يتبحجون فيصورون السواد الذى جلبوه لنا وعلينا وكأنه هو البياض الناصع، ومن حسن الحظ مرة ثانية أن أحداً لم يعد يعير صيحات هذه البوم أى التفات مهما رفعت من درجة الإثارة فى العناوين والأرقام، بل أصبحت أصوات البوم هذه تختص بمكان ثابت فى بعض الصحف المعنية بالإثارة على اختلاف درجة مصداقيتها.

أما ملامح العالم العربى الجديد فتتمثل فى نظرى فى :

❑ (أولا) الجدية فى مواجهة الواقعية السياسية:

وقد اتضح هذا من موقف العالم العربى من نتائج مفاوضات كامب ديفيد الثانية فيصرف النظر عن نعيق بوم المتشائمين، فان رد الفعل العربى سرعان ما تبلور فى ثلاثة اتجاهات غالبة كانت كلها لحسن الحظ تمثل الجدية بصورة أو بأخرى.

ويكفينى أن أشير إلى بعض مظاهر هذه الجدية:

- ❑ **جدية الاستشهاد** التى عبر عنها الأمين العام لحزب الله حسن نصر الله حين هدد صراحة وعلنا بنسف السفارة الأمريكية إذا ما انتقلت إلى القدس.
- ❑ **جدية التقييم** حين وضع العرب على المستويين الرسمى والشعبى ما تم وما لم يتم فى كامب ديفيد الثانية فى إطاره الصحيح.
- ❑ وهناك بعد هذا وقبله **جدية رد الفعل** وقد ظهر هذا واضحا جليا فى تصرف القيادة الفلسطينية متمثلة فى ياسر عرفات، وقد أعادت تحركات هذه القيادة بعد فشل كامب ديفيد الثانية إلى الأذهان صورة التحرك الدبلوماسى المصرى المكثف قبل حرب أكتوبر وبعدها مباشرة حين لم تترك الدبلوماسية المصرية موضعا فى الأرض المعمورة دون أن تذهب إليه وتطلعه بكل ما هو ممكن على

مظاهر وشواهد ودلائل التعنت الإسرائيلى، وقد فاجأ ياسر عرفات العالم بأنه يزوره كله بنفسه تباعاً تباعاً دون أن يعلن مسبقاً عن النية فى زيارة كل هذه الدول التى زارها، وهى ـ حسب معلوماتى ـ أول مرة ينهج فيها ياسر عرفات هذا المنهج المفرط فى الدأب على المستوى الدولى، وبأكثر الأصوات انخفاضاً فى الوقت ذاته، وقد وجدت إسرائيل نفسها بعد جولة عرفات فى وضع دبلوماسى دولى لم تتصور نفسها تنحصر فيه وسرعان ما وضعت خطتها المكثفة من أجل رد الفعل، ولكن بعد أن كان الفعل رغم محدودية قيمته قد تبلور، وأخذ طريقه إلى التنفيذ وترك الانطباعات .

(ثانيا) تقاسم الأدوار فى التفوق العصرى:

بدأت الحكومات العربية تنتبه فى ذكاء شديد إلى أهمية فكرة اختصاص كل منها بدور غائب عن اهتمام الشقيقات، وقد حدث هذا فى مقابل السياسات العتيقة التى كانت تجنح إلى التكرار أو التنافس المحموم فى نفس الحقل،والزعم بامكان السيطرة على انتاج كل شئ من الابرة إلى الصاروخ .

وهكذا واصلت الكويت نجاحاتها الثقافية المتميزة، على حين حافظت قطر على الزخم الإعلامى الذى حققته من خلال قناة الجزيرة، ونمت السعودية من اهتماماتها الرياضية بكل ما تعكسه من تربية ونظام، وضربت سوريا أمثلة بارزة فى مواصلة سياسات التحول الاقتصادى بتخطيط هادئ واضح ومسبق، واستعادت الديمقراطية فى لبنان ازدهارها، وعادت المغرب إلى مواصلة أدوارها الدبلوماسية وبخاصة مع إسرائيل، ونجحت ليبيا لأول مرة فى أن تصوراً لنفسها دوراً متواصفاً يكفل لها مكاناً فى السياسة الدولية الساعية إلى توفير حلول للأزمات لا الخالقة لها (مشكلة الفلبين)، بل إن البحرين التى ابتليت بكارثة إنسانية مروعة نجحت بدرجة كبيرة فى مواجهة

المشكلات الناجمة عن الكارثة، وعلى المستوى العاطفى كرس أمير البحرين هذا النجاح بقدومه بنفسه إلى مصر لتقديم واجب العزاء فى ضحايانا من الشهداء.

❑

❑ (ثالثا) بلورة الأمل فى الانتظام:

تنبئ الاتفاقات الاقتصادية المتعددة التى تم إقرارها فى الفترة الماضية عن رغبة أكيدة لدى الحكومات والخبراء فى وضع كل نشاط بشرى فى الإطار المنتظم الذى يكفل استمرار النشاط فيما بعد بصورة روتينية بعيداً عن الحاجة الملحة والمتجددة إلى النوايا الحسنة، أو الأوامر الحماسية، أو الحملات الدعائية وليس من شك أن كل انتظام يتحقق فى اللقاءات يؤدى بالتبعية إلى الانتصار للهدف القومى.

ولكن أهم الخطوات فى نظرى كانت القرار «الشجاع» الذى اتخذ فى هدوء فى اجتماع الجامعة العربية وهو القرار الذى تأخر أكثر من خمسين عاماً، أقصد القرار الخاص بأن تعقد القمة العربية بصورة سنوية فى مارس من كل عام وحتى إذا لم يحضر القمة فى الدورات الهادئة إلا نصف الرؤساء، فإن الانتظام فى عقد القمة يمثل فى حد ذاته أكبر صمام أمان كفيل بتكريس الجدية والأمل فى الانتظام ، وتنمية العلاقات الثنائية إلى أقصى حد ممكن من خلال لقاء ينعقد أوتوماتيكيا، ولا ينتظر انشراح الصدر للدعوة إليه ، فضلا عن ضمان عدم تراكم المشكلات أو على الأقل ضمان عدم تراكم آثارها الجانبية.

4

المسلمون على مائدة العولمة

- القدس والدبلوماسية الإسلامية
- العراق فى الفكر الأمريكى
- جنوب السودان .. إلى أين ؟
- السودان والمساعدات الأمريكية القادمة



يحلو لبعض الخبثاء أن يقولوا إن مشكلة القدس تكمن فى مسئولية المسلمين عنها ووجود بعض مقدساتهم فيها، ولو أن القدس كانت مسيحية صرفة أو يهودية صرفة ماجرؤ أحد على أن ينتهك مقدساتها على نحو ما تفعل حكومات إسرائيلة متعاقبة منذ ١٩٦٧ وحتى الآن. ومع ما فى هذا القول من غرابة فانه لا يخلو من بعض الصواب الذى أثبته الأيام على مدى الفترة الماضية، ويبدو لى أنه لابد من مقدمات سريعة قبل الدخول إلى جوهر الموضوع.

المقدمة الأولى: أن المسئول الأول عن ضياع القدس طيلة أكثر من ثلث قرن كانت نكبة ١٩٦٧، ومن ثم فإن جزءا كبيرا من المسئولية عن القدس يقع على السياسة المصرية على وجه التحديد، ومن حسن الحظ أن السياسة المصرية تحس بهذه المسئولية وتمارسها بصورة متميزة من الحكمة، بل إنها تمارسها دون أن تعرج كثيرا على لوم الحكومات العربية والإسلامية على أنها لم تستثمر ما كانت السياسة المصرية نفسها قد حققته فى كامب ديفيد الأولى فيما يتعلق بالقدس، ويتناغم الأداء المصرى دون ادعاء بأن ما حدث كان يمكن تجنبه..

وهذه على كل حال صورة من صور أداء متميز عاقل.

المقدمة الثانية: أن الأدوات التى ساعدت على وضع القدس وانتفاضة الأقصى فى الوضع الصحيح أو قريبا من الوضع الصحيح فى بؤرة الاهتمام الدولى، كانت أدوات غربية، ولم تكن للأسف الشديد أدوات عربية أو إسلامية، وعلى سبيل المثال فإن الصورة التى فجرت التعاطف الإنسانى مع الشهيد محمد الدرة وأمثاله من الشهداء الفلسطينين تم التقاطها وتصويرها بكاميرا القناة الفرنسية الثانية، وليس بكاميرا قناة الجزيرة، ولا الفضائيات العربية التى قاربت المائة، وصحيح أن المصور فلسطينى لكن العبرة فى البداية والنهاية بالإدارة، فلو أن نفس المصور يعمل فى قناة عربية لكان عليه أن يبقى فى سلسلة طويلة من أخذ موافقات رؤسائه، وحساب بدل السفر، وإخلاء الطرف قبل أن يسافر لمثل هذه المهمة بورقة صفراء لابد أن يوقعها رئيس التليفزيون أو وزير الإعلام نفسه(!!) وقل مثل هذا عن تغطية شبكة الـ سى. إن. إن، وغيرها.

والخلاصة أنه يمكن القول بأن العوامل الإعلامية المساعدة على إبراز عدالة القضية الفلسطينية جاءت من أطراف لا تنتمى المسألة إليها، وربما كان الدليل أن الصحف عندنا لم تهتم بالصورة فى أول الأمر ولم يفجر هذا الاهتمام إلا حديث الرئيس مبارك نفسه بما عرف عنه من حس إنسانى وسياسى.

❑

المقدمة الثالثة: أن ما حدث وما يحدث على أرض فلسطين منذ بدأت انتفاضة الأقصى لم يكن أمرا بعيدا عن التوقع، فقد حذر منه كثيرون، منذ ما قبل نهاية كامب ديفيد الثانية، ومع هذا فإن أحدا لم يحسب حسابه، وأنا لا أقصد سياسيا إسرائيليا أهوج كشارون بكل ما هو معروف عنه من اندفاع الدب القاتل، ولكنى، على النقيض، أقصد الجانب الإسلامى الذى لم يضع حتى الآن الخطة الإعلامية والدبلوماسية الذكية التى من المفترض أن تواكب الانتفاضة متى بدأت الانتفاضة (وذلك لأن الانتفاضة بطبعها تتجدد من حين لآخر).

ومن الملاحظ أن ردود الفعل لدى القادة السياسيين الفلسطينيين كانت يومية (على أسرع تقدير)، ومع وجود عذر واضح لهؤلاء فى مثل هذا اللهاث وراء الأحداث على نحو ما نلمس من أحاديثهم فى اللقاءات التلفزيونية العالمية التى تتكرر مع كل مظهر من مظاهر قسوة ممارسات الإسرائيليين وغطرستهم، إلا أنى كنت أعتقد أن التجربة التى مر بها الفلسطينيون فى الانتفاضات السابقة كانت كفيلة بوجود برامج مؤسسية على مستوى الإعلام الإسلامى لاستثمار مثل هذا الكفاح النبيل. ولا ننسى فى هذا المجال أن هناك منظمة قائمة الفعل لاتحاد إذاعات الدول الإسلامية، ويمكن لها أن تخطط لحملة إعلامية وتطرحها على السلطات الإسلامية العليا طالبة التمويل.

ومع هذا فإن الدور الفلسطينى فى تحريك مثل هذه المنظمات رغم عضويته فيها لا يزال غائبا، أقول هذا مع إيمانى العميق بقسوة الظروف التى يعانيها القادة الفلسطينيون، لكنى لا أزال أظنهم أقوى وأقدر من كل هذه الظروف.

❏

بعد هذه المقدمات فإنى أعتقد أن الدور الغائب فى الانتفاضة ليس إلا الدور الإسلامى، ومنذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما تشكلت لجنة القدس، وقد جاء تشكيلها كرد فعل للاستنفار الإسلامى الطبيعى الذى حدث حين أقدم صهيونى مخبول (أو موصوف بالخبل) على إحراق المسجد الأقصى، وقد كان هذا التصرف الأخرق بمثابة إنذار واضح للتنبيه على الوضع الحرج الذى أصبحت القدس على شفا معاناته من حين لآخر، ومن الإنصاف أن نذكر أن لجنة القدس اجتمعت وانفضت، مرة بعد أخرى، وكانت حاضرة على الدوام، لكن دورها الحقيقى ظل يتضاءل حتى إذا حلت الانتفاضة الأخيرة التى هى انتفاضة الأقصى وانتفاضة القدس، افتقدنا لجنة القدس تماما، وذلك على الرغم من أن الصراع أصبح يعتمد فى تغذيته الإعلامية أو وقوده الإعلامى على أن فى المساس بالقدس مساس بمشاعر المسلمين.. وأن الانتهاك بالأقدام شأنه شأن الحريق وشأن الحفر تحت المبنى.

ومن الواضح أن الدرس الأول الذى أفرزته انتفاضة الأقصى هو ضرورة البحث عن الصيغة الفاعلة للدبلوماسية الإسلامية القادرة على التجدد بأقصى سرعة ممكنة، فمن العجيب أن خافيير سولانا حضر مؤتمر شرم الشيخ كممثل للمجموعة الأوروبية، على حين لم يحضر ممثل للمجموعة الإسلامية، مع أن المؤتمر عُقد على أرض المسلمين ومن أجل ثالث مقدسات المسلمين وأولى القبلتين، وربما كان التساؤل: هل يقود حضور مندوب المجموعة الإسلامية مثل هذا المؤتمر إلى الالتزام بالتزامات محددة؟ والجواب: ولِم لا، خاصة أن معظم هذه الدول تشارك بفاعلية من خلال المفاوضات متعددة الجنسيات، بل وتتولى تمويل تكاليف السلام فى النهاية.

ومع أن المؤتمر الإسلامى والمنظمات الإسلامية الأخرى تفتقد حتى الآن الجهاز الدبلوماسى الكفيل بالاستجابات اللحظية بناء على سيناريوهات وسيناريوهات بديلة سابقة الإعداد، فان حل هذا المشكل ليس بالأمر الصعب، ويبدو أن الأمر فى حاجة إلى قدر من الوعى الإعلامى بحدود المنظمة وأعضائها ونشاطها وآليات عملها، وهى أمور لاتزال غائبة عن الإدراك العمومى لجماهير المسلمين، ولا يكاد أحد يعرف - على سبيل المثال - على مَنْ تحل الرئاسة الحالية أو القادمة، ومع هذا فان الدور المطلوب من أى بناء هيكلى يمثل كيان الدبلوماسية للدول الإسلامية أصبح يفرض نفسه وبصورة لا تحتمل الهروب ولا التأجيل ولو أن منظمة ما لم تسطع القيام به على النحو الأمثل فمن الأجدى أن تطور نفسها أو أن تتحول إلى صبغة أخرى أكثر قدرة على تحقيق الأهداف الإسلامية فى عصر حريص على تحقيق أهداف الجماعات الصغيرة.. فما بالنا بأكبر جماعة على وجه الأرض؟

❏

ولكن إلى أين تسير الأمور؟

كيف ستنتهى أزمات بيت المقدس وانتفاضاته ومعاناته؟

من المهم، كما نعرف، أن يكون تصور مستقبل الأزمة مسيطراً على الاداء الدبلوماسى الإسلامى وإلا فستكون النتيجة أن يقتصر هذا الاداء على همهمات وتحيات ومجاملات فحسب.

ولست أجد من حقى أن أشغل القارىء بتصوراتى للقضية الفلسطينية فقد فصلتها تماما فى كتابى «الفلسطينيون ينتصرون أخيرا» ولكنى أكتفى هنا بأن أشير إلى أن نظرية التاريخ الطبيعى التى أؤمن بها، تقول فى بساطة وحسم: إن القدس لنا، والأرض لنا، لأننا احترمنا الأرض والمقدسات وكل ما هو مقدس. ذهب عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) بنفسه إلى الكنيسة وأعطى العهد والتزم به، وكان من الذكاء بحيث أعلن حفاظه على حقوق الآخرين وجعله هذا الحفاظ يؤجل صلاته مع أن موعدها كان قد حل.. فى المقابل فإن قائدا عسكريا عرف (على مدى عمره الطويل) بأنه أخرق وأحمق أبى على نفسه إلا أن ينتهك الحرمات ليشعل النيران.

❑

وليس من شك أن من حسن حظ الإسلام والمسلمين والعرب والفلسطينيين أن مستوى قيادات عدوهم انحدر حتى أصبح فى مستوى نتانياهو وشارون.. وقد قاد الانحدار باراك إلى حيث سقط وهو أقرب إلى زميليه أو إلى طريقهما!

الشائع عن العقلية السياسية الأمريكية أنها عقلية مؤسسات، وهذا صحيح، لكننا فى عالمنا العربى نفهم هذه العبارة فهما قاصرا إذا ظننا أنه لا مجال للفكر الفردى فى صياغة هذه العقلية، بينما حقيقة الأمر أن عقلية المؤسسات تعلى من قيمة الفكر الفردى بأكثر مما تعلى منه عقلية الزعامات الفردية.

قد يبدو هذا التفسير البسيط صعب التصديق، لكنه فى الحقيقة والواقع والتجربة هو عين الصواب.. ودليلى على ما أقول هو أنه فى ظل حكم الفرد لا تصبح هناك قيمة للفكر الفردى على الإطلاق، حتى ولا لفكر الزعيم أو الدكتاتور نفسه، إنما الصوت الهادر للشعارات القديمة هو الأعلى، أما فى ظل حكم المؤسسات فإن الفكر الفردى يجد فرصة مذهلة لخدمته وتقويته وتهذيبه وصقله وتطويره وتكبيره، ثم - وهذا هو الأهم - لتنفيذ هذا الفكر وإخراجه إلى حيز الوجود مدعوما بقوة المؤسسات التى تتبناه.

يحدث هذا فى الطب وفى العلم وفى الاقتصاد وفى الاجتماع، ويحدث بأكثر من هذا كله فى السياسة!

ودليلى على أنه يحدث فى السياسة ليس أمرا واحدا فقط، لكنها أمور كثيرة بدأت تفرض نفسها منذ تدعمت روح المؤسسة فى تسيير السياسة الأمريكية الخارجية، وقد

ظهر هذا واضحا فى أزمة كوبا، وفى حرب ١٩٦٧، وفى الخلاص من مأزق فيتنام، وفى انفراجة العلاقات الصينية - الأمريكية، وفى حرب الخليج الأولى، وفى حرب الخليج الثانية، وفى مشروع حرب الكواكب... إلخ.

فى كل هذه المواقف الاستراتيجية كانت هناك روح المؤسسة الأمريكية، لكن هذه الروح كانت تستلهم أفكارا فردية يملك أصحابها الدلائل على انتسابها لهم وتعطيهم المؤسسة حقوق استغلالها، ومقابل الانتفاع بها، بل ترتفع بأقدارهم إلى الدرجات التى يصبحون فيها مخططين ومنفذين وقاطفين للثمار فى الوقت ذاته..

ولولا عقلية المؤسسات ما كانت هذه الفرص متاحة أمام عدد كبير من الأفراد المشهورين والبارزين أو الخالدين فى السياسة الأمريكية المعاصرة.

هذه المقدمة ضرورية لفهم موقف الأمريكيين من العراق فى ٢٠٠٢ أو فى ٢٠٠٣، وهو موقف ذكى، وإن كنا لم نستوعب مقدماته ودوافعه وآلياته على نحو واسع، ولست أستطيع أن أزعم أنى محيط بكل أبعاده ولكنى أكتفى بتصوير العمق الذى وراء بعض هذه الأبعاد:

أولاً: نظرية العودة إلى المودة القديمة:

على حين تظل بيوت الأزياء تطور فى الزى الجديد عاما بعد عاما، فإنها فى لحظات معينة تعود إلى مودة قديمة وتحييها لأنها ترى أن التجديد بالعودة إلى القديم يصبح أكثر قبولا، وأكثر فعالية، والأهم من هذا أنه يصبح أكثر مناسبة مع الظروف المتغيرة، ويبدو بوضوح أن الأمريكيين يفكرون الآن فى استخدام مودات قديمة فى معالجة أزمة العراق على الرغم من أننا نظن ونعتقد أن الزمن ربما يكون قد عفا على هذه الأساليب القديمة.

- وفى هذا الصدد نلمح فى التفكير الأمريكى الراهن ملامح اللجوء إلى سياسات من قبيل العودة إلى التفكير فى اغتيال الرؤساء أو المسئولين الكبار، لأن مثل هذا

الأسلوب كفيل بإرياك الأمور فى أى نظام دكتاتورى قائم على عبادة الفرد وعلى مركزية السلطة، ومع أن المخابرات المركزية الأمريكية قد تحجم دورها فى هذا المجال بقانون صدر منذ سنوات، إلا أنها لا تزال من خلال عقليات أو آراء فردية تطالب بصفة مؤسسية بالعودة إلى إباحة اللجوء إلى مثل هذا الأسلوب.

- على صعيد ثان نلمح دعواتٍ منظمة إلى إعادة الحكم الملكى، وهى نظرية تنتمى إلى تاريخ فرنسا وإلى تاريخ انجلترا بقدر ما وجدت تطبيقا نموذجيا على يد الجنرال فرانكو فى أسبانيا.. كما أنها أصبحت الآن تجد نوعا من التمثل بها فى جوهر النظام الجمهورى العراقى نفسه.
- على صعيد ثالث نلمح دعوات منظمة إلى التقسيم غير القائم على القوميات، لأن التقسيم القائم على القوميات يضمن نوعا من حياة التقسيم نفسه، أما التقسيم بطريقة «خطوط صينية أو طبق البقلاوة» فيضمن استمرار وتجدد النزاعات باستمرار، وهى النظرية الإنجليزية القديمة التى أثبتت نجاحات مذهلة ومروعة فى زرع بذور فتن مستمرة تضمن بقاء الوضع مشتعلا على الدوام ومن ثم الاعتماد على (بريطانيا) فى الانتصار لهذا الجانب أو ذاك.
- على صعيد رابع نلمح دعوات ذات بصمات بريطانية قديمة أيضا تنادى بالدعوة إلى تطوير التقسيم الهندسى للدول إلى وضع يكون الحاكم فيه من الأقلية، على حين تكون الحكومة من الأغلبية.

وبمثل هذه الأساليب المختلفة، وهى عديدة، تتعامل الولايات المتحدة الأمريكية الآن مع الوضع القائم فى العراق من خلال آليات مختلفة تقوم بها مؤسسات مختلفة ومتعددة الطابع بطريقة التناوب والتعاقب فى عرض الخيارات، وعلى كل راغب من أهل العراق أن يرضى نفسه بتبنى الولايات المتحدة الأمريكية لأمانيه حتى لو بدا له أن الآخرين يحظون أيضا بتقبل الولايات المتحدة لأفكارهم وتبنيها لأمانيهم.

والشاهد أن أحدا من العراقيين الآن لا ينفى أن الولايات المتحدة تحقق له ما يريد.. حتى الرئيس صدام نفسه الذى يعرف أن الفضل فى بقائه فى موقعه يعود إلى

عقلية أمريكية شيطانية قدرت أن الفائدة من بقائه تفوق الفائدة من رحيله.. وهو فكر شيطانى لا يتوصل إليه الإنسان المحكوم بغرائز النصر والتخلص من العدو، وإنما يتوصل إليه بالسليقة «الشيطان» الذى يبتغى بقاء الضحية على الدوام، والشيطان هو وحده الذى يفكر بمثل هذه الطريقة.

وهكذا فمن الممكن أيضا أن تعود أمريكا فى معاملتها لأزمة العراق إلى مودة قديمة من قبيل إبقاء صدام سنوات أخرى ذليلا منتكسا لكنه قادر على إذلال العراقيين من أجل بيع النفط مقابل الغذاء فى الظاهر، ومقابل سلاح القهر فى الباطن.

ثانياً: نظرية استهلاك المشكوك فيه واستبقاء المضمون

فى حقبة من الحقب كان الاقتصاديون الكبار ينصحون البلاد النامية بتصنيع خاماتها حتى ترتفع عوائدها، وكان يقال - على سبيل المثال - إن طن القطن إذا حلج ارتفعت قيمته إلى الضعف، على حين لا تكلف قيمة الحلج إلا ١٠ ٪، وهنا تحقق الدولة النامية ٩٠ ٪ كقيمة مضافة نتيجة خطوة صناعية واحدة، فإذا أجريت خطوة صناعية تالية وهى خطوة الغزل ارتفعت قيمة الطن مرة أخرى، وإذا أجريت خطوة صناعية ثالثة وهى النسيج، زاد الارتفاع، وإذا أجريت خطوة صناعية رابعة لتحويل النسيج إلى ملابس، زاد الارتفاع فى القيمة المضافة للمرة الرابعة إلى أربعة أضعاف.. وهكذا.

وقد طبقت نفس هذه القاعدة الذكية أو القديمة فى ذكائها على البترول، وأجرى التكرير والتقطير والصناعات البتروكيميائية وحتى صناعة الأنسجة من البترول، لكن كما هى العادة ظهر علماء اقتصاديون أكثر براعة، وقد قال هؤلاء بنظرية مؤداها أن بقاء البترول فى باطن الأرض وعدم استخراجه ربما يكون أكثر عائدا بكثير من استخراجه وتصنيعه، وذلك لأن الادخار أفضل فى كل حال من الاستهلاك.. وجاءت فترة الارتفاع المضاعف للأسعار لتؤكد على هذه النظرية فى ظل قفزات جنونية فى الأسعار.

ولما كانت الدول العربية تعتمد على عائد البترول فى تمويل خطط التنمية، فإنه لم يكن من الممكن أن يتم تنفيذ مثل هذه النصيحة بصورة مطلقة، وهكذا تم الأخذ بها بصورة جزئية تمثلت فى تقليل الاندفاع إلى بيع البترول، وظهرت نظرية التقييم الدائم والدائب لقيمة «الاحتياطى».

أما فى الدول الصناعية، وحيث لا يمثل الاعتماد على النفط فى خطط التنمية قدرا كبيرا، فقد أمكن تطبيق هذه النظرية بحذافيرها فى الولايات المتحدة وأمثالها، ولا تزال مثل هذه الدول تحافظ على المخزون فى باطن أرضها وتحت بحارها، بينما هى تشترى لاستهلاكها اليومى بترول العرب وأمثالهم.

وكعادة كل نظرية فلابد من التطوير، وبحكم عبقرية العقل البشرى فإن التطوير الجديد عند الأمريكيين لهذه النظرية يتمثل فى العمل على استنزاف بترول العراق وأمثاله من دول القلاقل، والحفاظ نسبيا على البترول فى الدول الاقل إقلاقا..

ولهذا السبب يتم الآن عمل دائب على استنزاف بترول العراق على ثلاثة محاور:

- الأول: هو تمويل العراق نفسه لخططه العسكرية الدفاعية والهجومية على حد سواء.
- الثانى: هو تمويل العراق للغذاء فى ظل غياب خطط تنمية كفيلة بتوفير غذاء محلى، وفى ظل انشغال الأيدى العاملة فى الاستعداد من أجل الحرب بدلا من الغذاء.
- الثالث: وهو الجديد الذى ينادى به أمريكيون محترمون الآن هو وضع اليد، ولا يستغربن قارئ من نظرية وضع اليد هذه، فلن تكون بمثابة استعمار جديد، لكنه شىء نعرفه نحن فى مصر بصفة خاصة، فعندما تُكلف شركة مقاولات كبيرة بمشروع كبير فإنها تستولى بالتراضى مع السلطات الحكومية المحلية على قطعة أرض كبيرة تمون فيها مواد البناء والآلات والأفراد.. إلخ، وتطيل الشركة فى وضع يدها على هذا الموضع بإنشاء خلاطات مواد البناء على سبيل المثال ومحطات التنقية والفرز ومخازن المعدات.. إلخ، ومع الوقت تصبح هذه الأرض

ملكا لشركة المقاولات بوضع اليد، فإذا كانت هذه الأرض من أراضى طرح النهر أو طرح البحر وتتيح مزروعات أو فواكه وخضر فإن الشركة تستولى على هذا الإنتاج بحكم استيلائها على الأرض ذاتها.. وهذا ما سيحدث فى حقول البترول العراقية على وجه التقريب.. بل على وجه التحديد حسب سيناريوهات فكرية أمريكية.. ستعسكر الجيوش على فوهات حقول البترول ولن تدخل شركات استخراج البترول إلى هذه الحقول إلا من خلال موافقة عسكرية أمريكية.. وهكذا يصبح هناك استعمار انتقائى selective لا يكلف نفسه احتلال الوطن كله مكتفيا بسيطرة محكمة على حقول البترول.

وهكذا تحتفظ أمريكا بما فى جيبيها العلوى والسفلى من بترول وطنى أو من بترول دول مستقرة أو من بترول عراقى يباع من أجل تمويل الغذاء والحرب على حد سواء، وتستهلك بعض بترول بعض مناطق العراق الذى وضعت يدها عليه بلا مقابل.

ثالثاً: نظرية النصر بلا حرب:

تعتمد بعض تطويرات وتعديلات هذه النظرية التى بشر بها الرئيس نيكسون بعد اعتزاله السلطة بسنوات طويلة، على فكرة افتعال حرب مضمونة النتائج لتحقيق أهداف محددة سلفا بأقل تكلفة ممكنة، وذلك من أجل تغذية الشعور البشرى بما هو دائم التعطش إليه من صراع ينتهى بتحقيق أهدافه المطلوبة.

لهذا السبب فإن الولايات المتحدة الأمريكية تحارب (فى العراق) دولة منهكة مستهلكة تحت شعار أنها تقود محور الشر، بينما تعلم الولايات المتحدة الأمريكية أن العراق أضعف فى عداوتها لأمريكا وللمصالح الأمريكية من دول أخرى لا تطيق أمريكا وتتمنى لها أياما سوداء كالحادى عشر من سبتمبر.

لكن أمريكا تفضل تأجيل حربها لمثل هذه الدول وتفضل البدء بهذه الدولة المنكوبة

بظروفها، المنهوكة بحروبها السابقة، التى لن تستطيع الصمود بأى صورة أمام الولايات المتحدة.

وبدلا من أن تخوض أمريكا حربا صعبة مع إيران أو مع كوريا على سبيل المثال، فإنها تؤثر الحرب السهلة فى ظروف مواتية فى العراق.. يحدث هذا جهارا نهارا على حين أن العراق نفسه قد قدم لأمريكا خدمات جليلة لم تقدمها له أية دولة فى المنطقة، ويكفى أن نذكر بضع خدمات قدمها العراق لأمريكا:

- فالعراق لم يحارب إسرائيل فى الصراع العربى - الإسرائيلى حربا مباشرة، وهكذا قدم خدمة جليلة لصنيعة أمريكا وقاعدتها الإسرائيلية فى المنطقة.
- والعراق خاض حربا مع إيران بإيحاء وتشجيع من أمريكا، بل وبمساعدة قادة وخبراء أمريكيين، وكانت النتيجة استنزاف الثورة الإسلامية فى إيران على مدى عشر سنوات كاملة لو لا أن تجرع الخومين السم وأعلن الانسحاب من طرف واحد بحكمة متناهية.
- وفى خلال هذه الحرب استنزف العراق ثروات عربية ضخمة من أجل تمويل هذه الحرب التى دفعت إليها الأيادى القذرة.
- وبعد هذه الحرب تطوع العراق بإعطاء أمريكا الفرصة للحلم الأمريكى الكبير بالتواجد فى الخليج وذلك بعد اجتياح الكويت.
- وبفضل حرب الخليج الثانية ورعونة سياسة العراق أنقذ الاقتصاد الأمريكى من مرحلة انكماش وعاد إلى أفضل أحواله.
- وبفضل بقاء الرئيس صدام حسين فى السلطة فقد تمكنت أمريكا من استنزاف بترول العراق فى برنامج «النفط مقابل الغذاء»، كما تمكنت من السيطرة على السياسة العربية لبعض الدول المجاورة من أجل «تحجيم البعبع».

- وفى كل هذه الخطوات كان المستفيد الأول هو صناعة السلاح الأمريكية أو الغربية الممولة برءوس أموال أمريكية.
- وبفضل كل هذا العبث الموجه من قواعد أمريكية تأكدت قدرة أمريكا على قيادة النظام العالمى الجديد.

وعلى الرغم من كل هذه الخدمات العراقية (الإجبارية والاختيارية) التى قدمتها العراق للولايات المتحدة الأمريكية، وعلى الرغم من أن نزيف عقول العراقيين لم يصب إلا فى مصلحة أمريكا نفسها بهجرتهم إليها قبل غيرها من الدول الغربية.. على الرغم من هذا كله فإن أمريكا لا تجد لاعبا تفوز عليه فى مباراة التنس السياسية والاستراتيجية فى موسم ٢٠٠٢/٢٠٠٣ إلا هذا اللاعب المنهك المريض، وهى تصوره لجماهير المتفرجين فى العالم لاعبا صعبا لأنه غنى ويمتلك مضارب تنس جميلة (!!) وكرات قوية عديدة (!!)، كما أن له ماض فى اللعب وخبرة به، بينما العراق منهك ومريض، بل مقعد ومشلول الأطراف..

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

فى بساطة شديدة وواضحة الدلالة تكرس المباحثات القائمة الآن، بين الحكومة السودانية وأطراف أخرى، على قدم وساق، ما سبق أن أعلنه اتفاق ، ماشاكوس ، من مدى فعالية الوجود الأمريكى فى السودانى ، ويرى بعض المراقبين أن الامر يبدو، وكأنه قد انتهى إلى الأبد استثمار القناع الراديكالى الذى وضعته بعض القوى السياسية على وجه حكومة الخرطوم.

كما يرى بعض المراقبين أنه قد أصبح من الواضح أن النفوذ الأمريكى أقوى بكثير من كل الدواعى إلى الانتماء لدول الجوار سواء فى الشمال أو الشمال الغربى أو فى أى جهة أخرى ، وارتفعت أسهم القائلين بطول عمر التحالف الحاكم فى السودان وبأن تغيرات هيكلية ستأخذ طريقها إلى الاحزاب السياسية التقليدية فى السودان .

وعلى الرغم من كل التحفظات المنطقية التى نفهمها ونقدرها فيما يتعلق بمستقبل السودان، وعلى الرغم من الجزع من وصول النفوذ الأمريكى إلى هذا المستوى من الفعالية والتغلغل، على الرغم من هذا وذاك فاننا لانستطيع أن ننكر بعض الايجابيات التى حققها الاتفاق الاخير وهى على وجه التحديد ثلاثة إيجابيات مهمة .

الإيجابية الأولى هى إعطاء الفرصة لفترة من الاستقرار بعيداً عن الحروب والمناوشات وروح الحروب والمناوشات ، فى هذا الصدد يمكن لبعض خطط التنمية ،الإسعافية، أن تجد وبسرعة فرصتها للتطبيق، كما يمكن استئناف بعض المشروعات القديمة التى بدأتها الحكومة المركزية فى جنوب السودان ، بل إن الأهم من هذا وذاك أن تتمتع الحكومة المركزية بإدارات ذكية قادرة على تقديم وتنفيذ مشروعات سريعة الأجل سريعة العائد قليلة التكاليف وأن تنفذها بأقصى سرعة وبأقصى كفاءة فى مناطق الجنوب لتؤكد لكل المؤيدين والمعارضين على جدوى الارتباط بدولة سودانية واحدة لها خبرتها ولها قدراتها .

ومع ذلك فان البعض يتصور إمكان تحقيق مثل هذا الانجاز شيئاً بعيداً عن التوقيع .

وبالاضافة إلى هذا وذلك فانى أتصور أن أولى الأولويات هى ربط الجنوب بالشمال بطريق سريع فعال سواء كان هذا الطريق بريا أم حديدياً ، وتقسيم مشروع هذا الطريق إلى أربعة قطاعات تتولى كل دولة من الدول الصديقة تنفيذ أحدها ، ولعل الشقيقة مصر تكون أول هذه الدول التى لايستبعد أن تكون منها الصين واليابان وكوريا وفرنسا وانجلترا وألمانيا ، كما لايستبعد أن تشارك الإمارات والسعودية والكويت وماليزيا بالتمويل .

وأعود لأكرر إن التاريخ قد علمنا أن اتفاقات الهدنة والمراحل الانتقالية هى أكثر الفرص السانحة للتعبير عن التوجهات المثلى والنموذجية ولاثبات حسن النوايا ومقبولية الأهداف فى ذات الوقت ، ولايمنع هذا بالطبع من أن تغير الأطراف ترتيب قواتها وتأهيلها تحسباً لأى نوايا من النوع الآخر يُدفع إليها أو يندفع الطرف الآخر .

❑

الإيجابية الثانية هى إقرار القوات المتمردة فى الجنوب بسطوة ومكانة الحكومة المركزية ، وقيمة الجهود الدولية سواء كانت أمريكية وكينية، وفى هذا الاقرار الذى

تحول بالفعل إلى اتفاق مكتوب نوع من تسييس **قوى التمرد** بعد أن كانت مجرد قوات تمرد وحرب عصابات .

والنتيجة الطبيعية لمثل هذه الخطوة تتمثل كما نعرف فى نزع فتيل أسلحة المزايدة التى كانت تزايد بها الطوائف المختلفة فى الجنوب على بعضها .

ولست من الذين يهوون التركيز الحديث عن أن جارنج لايمثل الجنوب كله، ولا على أن قبيلته ، الدنكا ، منقسمة على نفسها كما أنى لا أحب الانسياق لتهويل الذين يشيرون إلى كثرة فئات الديانات واللغات واللهجات والتوجهات فى الجنوب .

وظنى أن كل هذا التناحر والتمزق لا يزدهر إلا بفضل استمرار النزاعات والحروب ، فإذا ما وصلنا إلى نهاية لهذه الحروب فسنجد القوى المتعددة تنحصر فى عدد أقل، وسنجد الاتجاهات المتطرفة وهى تنحسر، والمزايدات تتراجع ، ولو أن الأمر كان كما يصوره المهولون لكان من السهل على الحكومة المركزية أن تسيطر على الوضع من خلال ضرب الاتجاهات المختلفة ببعضها ، ولكن الظاهر للعيان أن جارانج لايزال يمثل ثقلاً استمر طيلة سنوات وبقى عليه أن يثبت أنه رجل سلام أو رجل دولة بقدر ما كان رجل تمرد .

❑

أما الإيجابية الثالثة فتتمثل فى تبلور توجهات الحكومة السودانية بما يحميها من نفسها ومن الشعارات ، فلأول مرة منذ سنوات عديدة تعترف هذه الحكومة بالآخر بما فى ذلك المجتمع الدولى والادارة الامريكية على نحو موثق فى اتفاقات ، وهكذا تتحول صورة هذه الحكومة، العزيزة علينا بالطبع، من حكومة دولة راعية للارهاب وحاضنة لاسامة بن لادن وكارلوس وغيرهما إلى دولة ساعية للسلام ومرتبطة باتفاقات دولية ذات أمد محدد وذات مضمون واضح .

كذلك نجد هذه الحكومة وقد أصبحت تعبر عن علاقتها بالاسلام وتطبيق الشريعة بطريقة محددة بعيداً عن الشعارات والارتبطات بتيارات العنف ، وفى الحقيقة فإن الحكومة السودانية لاتزال حريصة على ارتباطها بالاسلام وشريعته ولكنها فى ذات الوقت تجاهر أو تعترف ضمنا بأنها لاتفرض رؤيتها هذه على الآخرين .

وإذا كان الأمر كذلك فان التوقعات كفيلة بأن تفتح أبواب السودان مرة أخرى لنوع جديد من العلاقات الغربية السودانية تكفل خلاص الحكومة الحالية من الأرق الذى يتمثل فى مزايدات أحزاب المعارضة، وعندئذ يمكن للحكومة القائمة أن تبدأ خطوات فعالة فى طريق ديمقراطية حقيقية أو شبه حقيقية بما يجنبها العزلة الدولية ويكفل لها طول العمر فى السلطة وهو هدف ليس ببعيد عن أذهان مثل هذه الحكومة .

ومع كل هذا فان الإيجابيات وحدها لا تكفى، وانما هى بداية لما يجب استثماره من أجل تحقيق أهداف إسلامية أو قومية أعمق أثراً.

ريما أصبح فى حكم المؤكد عند قطاع يمينى كبير فى الإدارة الأمريكية أن الولايات المتحدة الأمريكية على وشك النجاح فى إقامة دولة من طراز جديد فى جنوب السودان، فها هى المؤشرات جميعا تنبئ بأن الحكومة القائمة فى الخرطوم قد سلمت لأمريكا من أجل البقاء فى المستقبل، ومن أجل «السماح» عن أخطاء الماضى متمثلة بصورة خاصة فى احتضان بن لادن ونشاطه.

ومن الواضح لكل ذى عينين أن الصفقة الأخيرة المتمثلة فى اتفاق «ماشاكوس» كانت لحكومة الخرطوم بمثابة صفقة رابحة بكل المقاييس، فهى تضمن لها مزيداً من البقاء وقدراً كبيراً من السماح كما أشرنا فى الفصل السابق، وتضمن لها بالإضافة إلى هذا راحة البال من مشكلة مزمنة فشلت هى فى حلها، وإن كانت حكومات سابقة قد نجحت فى حلها تماماً، وتضمن لها رابعا التخلص من «عطف غير مطلوب» من الجارتين العربيتين وهو كما ألمحت الحكومة السودانية مراراً وتكراراً عطف مقدر لكنه غير مرحب به، فضلا عن أنه لا يضمن للحكومة الخرطومية طول العمر وإنما يجعلها تحت رحمة الآخرين.

وفضلا عن هذا كله فإن الصفقة الأخيرة ربما تضمن لحكومة الخرطوم مستقبلا

باهرا فى المعونات الاقتصادية والتعليمية الكفيلة بمواجهة مخططات حلفائها القدامى الذين أصبحوا الآن شبه أعداء.

ومع هذه النتائج الخمس البارزة فإن حكومة السودان ظهرت وكأنها صاحبة قدرة على المفاجأة من ناحية، وصاحبة قدرة على الإنجاز من ناحية أخرى، لكن قراءة التاريخ تنبئنا للأسف الشديد أن حكومة السودان لن تنال من الدعم ولا من المعونات إلا ما يحفظها تحت خط الفقر لكى تواصل الطلب، كذلك فإن حكومة السودان لن تنال من حلفائها الجدد إلا التحقير المتواصل من قبيل ما بدأ بالفعل حين أعلنت مصادر هؤلاء الحلفاء، بكل صراحة، أن الاتفاق قد تم التوصل إليه تحت ضغط شديد ومباشر من الأمريكيين.

على أن ما يهمنا تأمله فى هذا الموضوع ليس هو ربحية الحكومة القائمة فى الخرطوم، وإنما هو مبررات الحكومة القائمة فى واشنطن، فلم يكن من المتوقع أن يصدر كل هذا الاهتمام بالسودان عن حكومة مشغولة تماما بالشروع فى الحرب فى العراق، والانتهاء من أفغانستان، والتفكير فى مواجهة ما تسميه محور الشر!! والتورط فى مساندة شارون.

ولكن هذا ما حدث بالفعل، فقد تمكنت الأجهزة الأمريكية المساعدة [ولا نقول الرئيسية] من إتمام هذا الاتفاق على نحو فاق فى سرعته كل التوقعات.

❑

وعلى الرغم من أن معظم المحللين قد أرجعوا الفضل فى كل هذا التكثيف الأمريكى إلى سبب يبدو وجيها وهو قرب إنتاج البترول فى السودان، إلا أننى أعتقد أن هذا العامل ليس سببا بقدر ما هو نتيجة، ذلك أنى أعتقد أن الولايات المتحدة الأمريكية ستنتج البترول فى السودان أو جنوب السودان لتدعم بها سياستها هناك، فهى تعرف وتدرك مواضع وكميات البترول منذ زمن بعيد، وبوسعها أن تعوق وتؤجل

استخراجه وإنتاجه، وليس هذا بالسبب الذى يدفع سياسات دولة كبرى عندها ما يشغلها على مستوى السياسات الدولية.

أما السبب الحقيقى فى رأيى فهو محاولة أخرى، لا أقول فاشلة ولا أقول أتوقع أن تكون فاشلة، ولكنى أقول إننى أدعو من الله أن تكون فاشلة، وهى محاولة لإنشاء دولة دينية ذات مذهب مسيحى أمريكى فى جنوب السودان!!

....

يسعى إلى إقامة هذه الدولة تحالف مسيحى محافظ أخذ شأنه يزداد فى الولايات المتحدة الأمريكية حتى استطاع اختراق الإدارة الأمريكية الحالية، بل إن زعيم هذا الاتجاه وهو جراهام قد أصبح بمثابة الصديق الشخصى للرئيس الأمريكى الحالى.

وتتبنى أفكار هذا التحالف على أهمية التبشير واسع النطاق وإمكانية إنشاء دولة لمثل هذا المذهب فى مثل هذا الموقع.

ومن العجيب أن أحدا لم ينتبه بالقدر الكافى إلى العناصر التى تؤكد على هذه الحقيقة فيما تضمنه الاتفاق الأخير فى ماشاكوس من إعطاء حكومة الشمال حقوقها الدينية، وهى خطوة تمهد فى نعومة وسلاسة إلى إملاء حقوق دينية مماثلة فى الجنوب.

ومن العجيب أن الأطراف السودانية نفسها غير واعية لهذا الهدف الخفى أو المستتر الذى تلعب الإدارة الأمريكية من أجله، وذلك إلى حد أن المستشار السياسى لرئيس الحركة الشعبية لتحرير السودان، وهو نفسه وزير خارجية سابق، يتحدث إلى مجلة الأهرام العربى القاهرة (٣ أغسطس ٢٠٠٢) فيذكر فى عنوان حديثه بكل وضوح ما نصه: «تنازلنا عن العلمانية».

وفى صلب حديثه يقول منصور خالد ما نصه:

- «عندما يكون الحديث عن اتفاق يحقق السلام وينهى حربا دامت ٢٠ عاما يصبح الحديث عن الربح والخسارة لا معنى له، فالمكسب الرئيسى بالنسبة للطرفين هو إنهاء الحرب».

- «تنازلت الحركة عن تشددها فى الإصرار على العلمانية و(تكرس) قبولها بنصوص تتحدث عن تطبيق الشريعة على المسلمين».

- «سيكون جيش الحركة موجودا، وسيتم اختيار الاتفاق الذى يتم التوصل إليه خلال تلك الفترة الزمنية، فإذا اختار الجنوبيون فى استفتاء حق تقرير المصير الانفصالى، فسيحدث ذلك دون تجدد الحرب، لوجود رقابة وضمانات دولية».

....

وهكذا ينزلق الجنوبيون بنعومة إلى ترسيخ وتكريس ما يظنونه إرضاء للحكومة فى الخرطوم وتنازلا منهم من أجل الحل، بينما هذا التنازل لا يصب إلا فى مصلحة التبشير المسيحى الأمريكى القادم والذى بات متلهفا على أن ينشىء دولة فى جنوب السودان ستحتضن فى مستقبل قريب بن لادن الأمريكى الحقيقى الذى سوف يكون قادرا على تحطيم كل رموز الحضارة الأمريكية المعاصرة من أجل سعادة زائفة لليمين الأمريكى الشرس الذى يظن ويعلن أنه لابد من القضاء على الحضارة التى أفرزها الشيطان.

وإذا كان القضاء على بن لادن الإسلامى قد صُور على أنه معركة ناجحة فربما لا يكون القضاء على بن لادن الأمريكى وارداً بنفس القدر، لأنه نفسه سيكون أمريكيا ذا نفوذ جبار، ولن يكون ضيفا على أمريكا فحسب.

وأختم هذا الفصل بما يقال فى تأمل مثل هذه الأمور:

«وسبحان من له الدوام».



5

العلاقات الإسلامية في عصر العولمة

- الدين والحرية فى إيران
- العرب والأتراك والأكراد
- تونس تستعيد هويتها الإسلامية
- نموذج لمشروع للتعاون الطبى بين قطرين إسلاميين

يتميز الفقه الشيعى بقدرة فائقة على التطور، كما يتميز بمرونة عملية تتعدى المنطق الجامد والتفكير المجرد إلى حدود لا نهاية لها مادام العقل الإنسانى والوجدان المسلم مشتعلا ومتقدا بالإيمان بالخالق جل فى علاه. ويؤكد مبدأ «ولاية الفقيه» على هذه المعانى بكل ما يكفله هذا المبدأ من «عصرنة مستمرة للفقة الشيعى»، ومن ثم يتعلق كل إنسان منصف بأمل لا حدود له فيما يمكن للفكر الفقهى الشيعى أن يتصدى به من أجل تبيان وجهة النظر الإسلامية الشيعية تجاه القضايا المستحدثة على صعيد الحياة الدنيا.

ولهذا فإنى أتطلع بكل اطمئنان إلى ما سوف تسفر عنه المناقشات والمداخلات فى إيران بين مؤسسات دستورية مستقرة ذات توجهات واضحة وانحيازات معلن عنها، وكلى أمل فى أن تسفر هذه المناقشات عن قريب عن تأسيس وتكريس توجه إسلامى (واضح، ومحدد، ومعلن، وموصل من الفقه وأصوله) فيما يتعلق بقضية الحرية بمفاهيمها المتجددة.

وليس من شك فى أن دوافعى تجاه هذه الآمال المتزايدة متعددة، فكثير من زملائى من العلماء المسلمين يفضلون العمل فى بلاد غربية بسبب تأكدهم من

الحصول فى النهاية على الحماية التى توفرها السياسات العامة والخاصة التى تلتزم فى البداية والنهاية بحرية الإنسان. ويشمل هذا بالطبع حرية التعبير، وحرية البحث، وحرية النشر، وحرية النقد، وحرية السفر... إلخ،وهى حريات مترابطة ولا يحس بأهميتها إلا الذى نعم بها ثم حرم منها تماما كما أنه لا يحس بتاج الصحة على رءوس الأصحاء إلا المرضى الذين كانوا أصحاء.

ومن نعم الله على المسلمين المعاصرين أن اليهود لا يزالون موجودين ومتشبثين بكثير من المحرمات والممنوعات، وأن طوائف كثيرة من اليهود قد فرّغت نفسها وكرست جهودها للدفاع عن المقدسات اليهودية بكل صور الدفاع الممكن وغير الممكن.. وأياً ما كانت هذه المقدسات وأياً ما كان موقعها من التاريخ، فلا نزال نلحظ عناية اليهود بإضفاء القدسية عليها وإبقاء القدسية محيطة بها.

وقد رأينا عن قريب مدى ما تفعله المنظمات اليهودية فى جارودى وغيره حين يتصدون لتفنيد المعتقدات اليهودية حول محرقة النازى، وهو موقف واضح ثابت يظهر للعالم كله أن هناك حدودا وقيودا من الممكن أن تفرض حتى على ما هو، بحكم طبيعته، قابل للأخذ والرد.

هكذا فإن المسلم منا فى أى مجتمع دولى يستطيع أن يلجأ إلى المثل الذى تصوره السياسات اليهودية ليسكت أى دعوى توجه ضد ما يسمى بممارسات القيادات الإسلامية ضد الحرية، سواء فى هذا الفتوى بسفك دم سليمان رشدى، والقرار بتحريم الاتصال عبر الإنترنت فى دولة إسلامية كبيرة.

❑

ومبلغ ظنى أن المناقشات التى تدور اليوم فى إيران قادرة على أن تضىء الطريق للمجتمع الإسلامى المعاصر، وتدعم وجهة نظرى هذه ثلاثة عوامل:

العامل الأول: أن المناقشات تدور بطبيعة مؤسسية بعيدا عن كل عيوب المناقشات الفردية، والمزالق التى تقود إليها هذه المناقشات من البحث فى مصلحة الشخص وفى تاريخه وفى توجهاته وفى علاقاته، ومن تحميل التوجه الفكرى آثارا ثقيلة من هذه النواحى كلها.

❑

العامل الثانى: أن السياسة الإيرانية المعاصرة قادرة على الرجوع إلى المصلحة (أو الحق) والعدول عن الرأى (والفتوى)، ولست أظن مثلا أكثر دلالة على هذا من قرار الإمام الخومينى الشجاع بالتوقف عن الحرب العراقية - الإيرانية، وترك الرئيس صدام حسب ينعم كيفما شاء بدعاوى الانتصار..

فإذا أراد القارئ مثلا آخر يرتبط بالثقافة فإنى أستطيع أن أذكره بموقف حكومة إيران الإسلامية من السينما الذى بدأ بداية غاية فى التطرف، وفى الوقت المناسب عادت إيران إلى السينما، فلما لقيت الحكومة أزمة فى دور العرض لم تجد حرجا فى أن تستخدم بعض ملحقات دور العبادة كدور للعرض، ثم يفاجأ العالم والعالم الإسلامى بجوائز السينما العالمية وهى تتوجه لجيل جديد من السينمائيات وجدن بل ولدن فى عهد الثورة الإسلامية نفسها.

ولنا أن نقارن هذا على سبيل المثال بما يحدث فى مصر بتاريخها الطويل وبما فى جهود طلعت حرب وباستوديو مصر وبالصناعة التى كانت فى المرتبة الثانية بعد صناعة القطن.. مصر هذه بكل من وما فيها لا تزال ضحية مؤامرات مسئولين صغار، ومستثمرين قصيرى النظر، وسياسات أقل ما توصف به أنها غبية ومغرضة وغير وطنية، والنتيجة أن السينما المصرية تخرج من احتضار مشرف إلى احتضار مؤسف.

❑

أما العامل الثالث الذى يدفعنى إلى القول بأن المناقشات التى تدور فى إيران قادرة على أن تضىء الطريق للمجتمع الإسلامى المعاصر فهو أن أهل الثقافة والفكر فى إيران المعاصرة يتمتعون بالجدية، فهم يناقشون الجزئيات فى حدود أنها جزئيات دون أن يفرشوا الملاءة على نحو ما نفعل نحن فى مصر فى كل قضية صغيرة أو كبيرة نستنفر لها كل الأقلام حتى تصبح القضية كالوباء، وبعد أسبوعين على أكثر تقدير ينحسر الوباء دون أن نصل إلى قضية..

ومن العجيب أننى استقصيت آمال مجموعة من المثقفين والجامعيين فى قضيتين قريبتين، فإذا بالآمال تنحصر فى أنها ربما تكون فرصة للخلاص من وزير طال العهد بسياساته الفاشلة، بينما كان اعتقادى ولا يزال أن كل مَنْ سألتهم يفوقون هذا الوزير قدرة وقيمة واحتراما، ولكن توجههم انحصر للأسف فى تمنى مثل هذه الخطوة، وربما كان الأخطر من تفكيرهم أنى أظنهم على صواب.

عادة ما نتناول المشكلات عند تفاقمها واندلاعها ، و عادة ما نتغافل عنها طوال كمونها، ولأنى أؤمن بأن علاج الصحة أجدى وأفضل من علاج المرض فانى أود أن ننتبه إلى ضرورة الاهتمام الحثيث بل السعى من أجل إيجاد دور عربى لحل المشكلة الكردية فى إطار العمل فى الوقت ذاته على تطوير العلاقات العربية التركية.

وثمة ثلاث مسلمات تدفعنى إلى الكتابة فى هذا الموضوع :

ينبغى لنا أن نؤكد **أولاً** على ما نسلم به من علاقة **الأخوة** التى تربطنا بالأكراد وبالاتراك على حد سواء، وأن ننتبه **ثانيا** إلى أن **واجبات إنسانية وإسلامية وتاريخية** تفرض علينا أن نتحرك فى سبيل حل المشكلة ، وأن نعى **ثالثا** أن **الدبلوماسية** العربية بكفاءاتها الحاضرة وتاريخها الطويل وإنجازاتها القريبة **قادرة** على المساعدة فى ايجاد كثير من الحلول فى إطار حل أكثر شمولا وأقرب إلى تحقيق المصالح للاطراف المتعددة فى القضية التى نحن بصددها.

وفى الاتجاهات الثلاثة السابقة فإن انتفاء المصلحة الوقتية أو المباشرة يرفع من أسهم القدرة على المشاركة بفعالية ونجاح فى تحقيق إنجاز ملموس فى الصراع - الأزمة.

وقبل أن أتناول مايمكن للدبلوماسية العربية أن تلعبه من خلال الدبلوماسية الرسمية (فى وزارات الخارجية) أو البرلمانية أو العلمية (فى الجامعات ومراكز البحوث وأقسام اللغات والتاريخ والجمعات العلمية) فإنى أحب أن أوضح بعض الجوانب فى صورة تركيا فى الوجدان العربى المعاصر.

ولست أشك أن كثيرين جداً منا لايخفون استيائهم من موقف تركيا من اسرائيل الذى يقودها مرة بعد أخرى إلى نوع من أنواع التحالف العسكرى بينهما كالذى أعلن وحظى بمباركة الحزب الاسلامى حين كان يتولى الحكم فى تركيا.

وقد يكون من حقنا جميعا أن نستنكر مضى تركيا فى مثل هذا السلوك، ولكننى أجد من حقنا على أنفسنا أن ننتبه إلى الجانب الآخر فى القضية، وهو أن هذا الطريق ربما يمثل الطريق الوحيد أمام تركيا للنفاذ بطريقة غير مباشرة إلى تكنولوجيات الأسلحة الامريكية والغربية المتوافرة لدى اسرائيل.

وفضلاً عن هذا المأزق الذى يعطى العذر لتركيا فإنه بالمعايير السياسية التكتيكية فإن مثل هذا التحالف يساعد تركيا على احساس بشئ من التوازن المفقود فى علاقاتها الخارجية فى مواجهة الجبهات المفتوحة حولها فى اليونان وقبرص وأرمينيا بل وربما من إيران وسوريا والعراق .

وفى مقام ثالث فإن التحالف الاسرائيلى التركى سيستتبع بطريقة شبه أوتوماتيكية الفوز بمساندة اللوبى اليهودى فى الولايات المتحدة الامريكية نفسها، وبخاصة فى الصراع مع اليونان وقبرص وأرمينيا، بل فى صراع الحلفاء مع المجموعة الأوربية.

وإذا ما استطعنا فهم وتقدير هذه المكاسب الثلاثة التى قد تتحق لتركيا فإنه يمكن لنا أن نستوعب حقيقة وطبيعة مثل هذا التحالف الذى تلجأ إليه تركيا مضطرة ، والبحر من أمامها ومن ورائها كذلك بينما نحن نحسبها مستندة إلى حائط قوى ومتين.

وأظننا لانستطيع أن ننكر على تركيا مثل هذه الرؤية الاستراتيجية وإن كان واجبنا فى الوقت ذاته، يقتضينا أن نبحث لها عن البديل.

ومن المهم أيضا أن نفهم أن تركيا واحدة من دول العالم القليلة جداً التى تشترك بحدودها مع عدد كبير نسبياً من الدول وإذا كانت ألمانيا هى الدولة الغربية الوحيدة التى تشترك بحدود برية مع تسع دول فإن تركيا تشترك بحدود ممتدة بل وحية وناشطة مع سبع دول هى بلغاريا وروسيا وجورجيا وأرمينيا وايران والعراق وسوريا فضلاً عن أن المياه وحدها هى التى تفصل بينها وبين كل من اليونان وقبرص واوكرنيا ورومانيا ومولدوفيا.

ومن حق تركيا أن تشعر على الدوام بنوع من القلق على دفاعاتها وعلى كيانها وعلى مستقبلها ، ولنذكر أنها عانت فى ١٩٢٠ ، من معاهدة سيفر ، وأنها لم تنج من آثار هذه المعاهدة حتى بعد معاهدة لوزان ١٩٢٣ ، ولنذكر أيضا بكل الأسى أن النتائج النهائية للحربين العالميتين اللتين شهدهما القرن العشرين لم تسفر فى النهاية إلا عن تدمير الامبراطورية العثمانية (التركية) التى كانت بمثابة دولة الاسلام الأخيرة رضينا أم أبينا.

وقد حدث هذا وتكرس منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ولاتزال آثاره باقية على حين أن كل الإذلال الذى تعرضت له المانيا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية قد أوشك أن يكون جزءاً من التاريخ وأعيدت لألمانيا حقوقها التى كانت قبل الحرب العالمية الثانية.

❑

بعد هذا كله فانى أفضل أن ألجا إلى أسلوب عملى فى اقتراح بعض ما يمكن للدبلوماسية العربية بصورها المختلفة أن تساعد فى تحقيقه فى مساعدة تركيا على النجاة بنفسها من آثار محتملة لتفاقم الأزمة الكردية.

(١) ففى وسع الجامعة العربية أن تقود نوعا من الحوار التركى - الكردى يقود إلى فهم الآخر، والحوار مع الآخر ، كبديل متنام للمواجهة دون أن يكون الحوار نفسه

ملزما للأطراف أو مقيداً لحركتها أو ملزما لها بالاعتراف بأحقية وجهة النظر الأخرى فى التحقق والوجود على أرض الواقع.

(٢) وفى وسع الجامعة العربية أن تحصل للأكراد على اعتراف تركى رسمى بلغتهم وفى هذا السبيل فان بعض التقديرات تصل بنسبة الناطقين بالكردية إلى اكثر من ٣٠ ٪ من سكان تركيا .. وليس من البدع أن تعترف حكومات قوية بل ودكتاتورية وعسكرية بمثل هذا الحق لبعض السكان ففى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها اعتراف شبيه ، بل إن اسرائيل نفسها [بكل ما نعرفه من غطرستها وعنصريتها] تعترف باللغة العربية كلغة رسمية ثانية!!.

(٣) وفى وسع الجامعة العربية أن تقنع تركيا والأكراد فى نفس الوقت ببدء الخطوات نحو تطوير نوع من الإدارة فى سبيل حكم ذاتى محلى ، تنضوى فيه قوات أمن أغلبها من الأكراد فى جهاز الأمن التركى كله ، وذلك بديلا عن الصور المحتملة من تكوين ميلشيات وجيوش محليات أو أقليات وليست التجارب المحيطة بتركيا (ولن أذكر اسماء دول) ببعيدة عن الأذهان .

وسوف يشجع مثل هذا «**التكريد الأمنى**» تركيا نفسها على التخلى عن تجييش جيوش خاصة لمناطق الأكراد كما أنه سوف يرفع هذا عن كاهل الموازنة التركية أعباء مالية ضخمة يمكن توجيها بالطبع إلى تنمية المناطق الكردية نفسها .

وحين ينشغل قادة المعارضة الكردية فى إدارة أقاليم بلادهم فانهم سيجدون فى التنمية بديلا أفضل بكثير من النضال السرى والعمل تحت الأرض.

(٤) وفى وسع تركيا بمساعدة حثيثة من دبلوماسية عربية هادئة تعمل على أرض عربية على مدى عامين أو ثلاثة أعوام أن تنمى وترعى وجود هيئة كردية قادرة على المفاوضة ، وعلى تمثيل الحقوق، ثم على تبنى خطط التنمية، وعلى إدارة الواجبات اليومية بديلا عن صراعات لاتنتهى بحكم طبائع الأشياء، وإنما

تتفاقم وتتضاعف بين **أجنحة انشقاقية، ثم أجنحة متطرفة، ثم أجنحة أكثر تطرفاً، ثم أجنحة متطرفة بأكثر مما يحتمل التطرف ذاته !** أى بديلا عن الدائرة المغلقة التى لايمكن لأحد أياً مَنْ كان أن يكسرها كما هو حادث الآن فى دولة آسيوية قريبة إلى حد ما من تركيا.

❑

وفى جميع الأحوال فلست أحب أن أصادر على ما يمكن لنا أن نفعله كعرب ومسلمين فى هذا المجال، وبخاصة أن خبرائنا الدبلوماسين والقانونيين والسياسيين والاستراتجيين يفوقوننى خبرة وفهما لكل جزئية من جزئيات هذا الصراع، ولكنى أشعر أننى كعربى مسلم، وكعربى، وكمسلم مدين للأكراد بكثير جداً من الفضل على مدى تاريخ أجدادى بدءاً من صلاح الدين الأيوبى الذى انتصر للاسلام والعروبة.

وفى الوقت ذاته فاننى، كمسلم، مدين للأتراك بحفاظهم على الدولة الاسلامية لمدة خمسة قرون حتى لو كانوا قد ضيعوها بعد هذا.

ومن ناحية ثالثة فإننى أتمنى لتركيا طريقاً قويماً حقيقياً يرتفع بها إلى دور دولى مرموق يربط بين الاسلام والغرب، ويتيح لها قيادة دول آسيا الصغرى وغيرها فضلاً عن شبه جزيرة البلقان.

تجربة تونس المعاصرة جديرة بالدراسة لأنها أثمرت منذ الاستقلال فى منتصف الخمسينات وحتى الآن دولة عصرية قادرة على التعامل مع العصر بلغته، وعلى تحقيق استقرار اقتصادى واجتماعى ملحوظين، وعلى توظيف مواردها من أجل أهداف واضحة ومحددة.

ومن المدهش أن تونس التى لا تحظى بثراء فى الموارد قد وصلت إلى معدلات تنمية مرتفعة بفضل اجتماع عنصرين مهمين هما مواردها البشرية، وسياسات مدروسة وقادرة على التكيف مع الظروف.

وعلى سبيل المثال فقد عنيت تونس بالسياحة عناية فائقة وصائبة فى الوقت ذاته، فهى لم تشغل بالها بالدعاية الظاهرية للسياحة أو بالملصقات والمؤتمرات والندوات على نحو ما نفعل، لكنها وفرت لهذه السياحة بنية أساسية فائقة المستوى من طرق جميلة، وحدائق، وفنادق، ومطاعم، ومعالم، فضلا عن قوانين كفيلة بحماية السائح من أخطاء الإداريين والموظفين قصار النظر، ولهذا بلغ عدد السائحين القادمين إلى تونس أضعاف مَنْ يقدمون إلى غيرها من البلاد العربية.

ومع كل هذا التوجه الذى يبدو غربى التوجه وبراجماتى الطابع فقد بدأت تونس تستعيد هويتها الإسلامية منذ تولى الرئيس زين العابدين بن على مقاليد الأمور فى ١٩٨٧ خلفا للرئيس بورقيبة صاحب سياسات التغريب من أجل التقدم، والذى كان حريصا على المضى فى خطوات واسعة من أجل النهضة، وهكذا فإنه تبنى سياسات بدت تغريبية تماماً على الرغم من أنه استخدم المفاهيم والجذور الإسلامية فى وصوله إلى السلطة ، وتحقيق ما حقق من زعامة.

وقد بدأت تونس فى هذا الاتجاه إلى استعادة هويتها الإسلامية بخطوات متدرجة ولكنها قادرة على أن تكفل لها فى النهاية استعادة صورتها الإسلامية وجوهر تدينها الحنيف.

❑

على أن الأهم من هذه الخطوات تمثل فى رأيى فى عدم المزايدة بها أو استغلالها للتدليل على انتهاج سلوك دينى أو إسلامى، أو المتاجرة بها فى مواجهة جماعات الإسلام السياسى، وإنما وجدت قيادة تونس أن الأفضل لها ولشعبها أن تخطو مثل هذه الخطوات فى هدوء تام.

ولهذا السبب فلربما تبدو أفكارى فى هذا الفصل أفكاراً حرة تتعارض مع الصورة الذهنية المتحققة بالفعل، أو المراد تحقيقها.

ولعل أبرز هذه الخطوات فى الاتجاه التونسى إلى استعادة الهوية الإسلامية كانت إعادة جامعة الزيتونة لتأخذ دورها الرائد بين الجامعات الإسلامية، ومن الجدير بالنظر أن هذه الجامعة لا تزال من حيث عدد طلابها أصغر الجامعات التونسية، لكنها فى الوقت نفسه أعرق هذه الجامعات، وهى تستند فى تاريخها العلمى والفقهى إلى تراث إسلامى ممتد ومتجذر، ولم يكن من السهل اقتلاعه ولا تبديل صورة نموه، ومع هذا فان مشاعر المسلمين فى العالم الإسلامى والعالم الإفريقى بصفة خاصة لا تزال

تتطلع إلى عناية أكبر بهذه الجامعة لتصبح بمثابة منارة من منارات تونس الإفريقية من ناحية، ولتصبح بمثابة منارة لتبادل الفكر الإنسانى مع المجتمعات الفرانكفونية من ناحية أخرى.

وفى هذا الاتجاه أيضا تم استحداث مركز للدراسات الإسلامية فى مدينة القيروان عاصمة الإسلام الأولى فى أفريقيا، كذلك فقد كانت للحكومة الفرنسية خطوات متدرجة فى الارتفاع بقيمة الجهاز المشرف على الشئون الدينية من إدارة إلى إدارة عامة، ثم إلى «كتابة دولة»، ثم إلى وزارة للشئون الإسلامية، وفى اتجاه آخر تم تعزيز المجلس الإسلامى الأعلى وتوسيع صلاحياته.

❑

وبالإضافة إلى هذه الإصلاحات المؤسسية فقد تنبه نظام التحول الديمقراطى فى تونس إلى مجموعة من الإجراءات المهمة المنبئة أو المعلنة عن هوية تونس الإسلامية وتوجهها إلى الارتباط بشقيقاتها، ولهذا السبب ومنذ الشهر الأول لتولى الرئيس زين العابدين بن على مقاليد الحكم فإنه بدأ فى اتخاذ مجموعة من القرارات التى كفلت الإعلان بوضوح عن وجه تونس الحقيقى، وذلك من قبيل بث الأذان للصلوات فى الإذاعتين المسموعة والمرئية، ونقل وقائع صلاة الجمعة إذاعيا وتليفزيونيا، والعودة إلى منهج العمل برؤية الهلال لتحديد بداية الشهور العربية مع الاستئناس فى الوقت نفسه بالحساب فى ضبط أوائل الأشهر والأعياد الإسلامية، كما تقرر إثبات التاريخ الهجرى مع التاريخ الميلادى فى قرارات الدولة.

وهكذا تحقق للتونسيين المتمسكين بجذورهم قدر كبير من الاطمئنان إلى ارتباط سياسة الحكم [فى ظل التحول الديمقراطى] بالهوية الإسلامية، وهكذا أصبح من الممكن التخلى المبكر عن نزعات التطرف، ووأد هذه التوجهات فى جذورها، والقضاء على فرص توظيفها سياسيا من أجل أهداف قصيرة النظر يندفع إليها بعض المتحمسين عن سوء نية أو حسن نية.

وعلى صعيد العمل اليومى أصبحت المساجد والزوايا والجوامع تجد عناية فائقة على مستوى الصيانةوالترميم والتجديد وبناء الجديد، كما شملت العاملين فيها مظلة التأمينات الاجتماعية بعد أن كانوا أقرب إلى المتطوعين غير المرتبطين بالجهاز الحكومى.

وخلاصة القول إن خمسة عشر عاما من التحول (١٩٨٧ - ٢٠٠٢) قد عنيت بالدين ضمن ما عنيت به من أمور تونس والتونسيين فى ظل نسيج متوازن من العناية بالهوية والجذور، والتفاعل مع العصر وحاجاته، ولم يبق فى هذا المجال إلا استعادة مكانة العلم الدينى فى جامعة الزيتونة والجامعات التونسية، والارتقاء بهما إلى الدرجات التى يحق عندها لكل تونسى ولكل مسلم أن يفخر بالأدوار التى لعبتها الحركة الدينية التونسية فى الإصلاح والتجديد على مدى عصور الإسلام المتعاقبة، ولا ننسى فى هذا الصدد فضل فقهاء تونس، وعلمائها، وفى مقدمتهم الفقيه العظيم «ابن سحنون»، كما لا ننسى مشاركات علماء تونس فى العصر الحديث فى إعلاء شأن الإسلام، وقد كان منهم أعضاء بارزون فى هيئة كبار العلماء، ومجمع اللغة العربية وغيرهما من المجامع العلمية والفقهية واللغوية، بل إن أحد هؤلاء وهو الشيخ محمد الخضر حسين كان أول شيخ للأزهر يقع عليه اختيار رجال الثورة المصرية، وقد كان له نشاط أهلى ضخم من خلال جمعية الهداية الإسلامية التى ترأسها، بل إن رده المبكر فى ١٩٢٥ على كتاب الشيخ على عبد الرازق كان فى حد ذاته نموذجاً للفقه الحقيقى، والعلم المحيط الذى لا تدرك شطآنه.

أهدت تونس الإسلام فى الماضى عددا لا يستهان به من أعلامه، وأقطابه، وأفذاذه، ويقى أن تهديه فى المستقبل مَنْ هم أهل لهذا الفضل.

نموذج لمشروع للتعاون الطبى بين قطرين إسلاميين (*)

لم يعد تعريف الصحة فى القيم الاجتماعية الدولية هو ذلك التعريف السلبى الذى يعنى انعدام المرض أو العجز، ولكنها أصبحت تعرف على أنها حالة من اكتمال السلامة بدنيا وعقليا واجتماعيا.. وهكذا أصبح هناك اعتراف واضح بدور العوامل البيئية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى مجال الصحة بحيث يمكن إعطاء الاهتمامات المتناسبة للقطاعات التى تتولى شئون البيئة والتعليم والوضع الاقتصادى والاجتماعى والتغذية والثقافة ووسائل الإعلام.

ومن البدهى أن هذه المجالات تتفاعل هى الأخرى مع الجهود المبذولة فى التعاون الطبى بين المجتمعات العربية.

وسوف نحاول أن نحدد بعض مداخل محددة لآفاق التعاون الطبى الكفيل بتنمية التعاون فى المجالات الأخرى على ثلاثة محاور:

(*) هذا الفصل هو مشروع نموذجى (model) للتعاون مع الأقطار الإسلامية الشقيقة من خلال صناديق المعونة الفنية التابعة لوزارة الخارجية المصرية ، وقد أعددته على هذا النحو منذ أكثر من عشر سنوات ، وتمت الاستعانة - بالفعل - ببعض أفكاره.

- التعاون فى مجال القوى البشرية.
- التعاون فى مشروعات مشتركة.
- إنشاء هيئات مشتركة لصياغة التعاون العام.

أولا: التعاون فى مجال القوى البشرية:

(أ) التدريب:

يعتبر التدريب (المهنى والمتقدم) الميدان الأول للتعاون بين قطرين شقيقين، إذ أنه هو المجال الأقرب إلى تحقيق أقصى قدر من التعاون المثمر والفعال.. وبالإضافة إلى هذا فإنه بمثابة المجال الذى يمكن خوضه بسهولة وبسرعة وبدون كثير من الإعداد أو التجهيز للارتباطات المسبقة والخطط السنوية والخمسية.. إلخ.

وتتوافر فى مصر على سبيل المثال مجالات واسعة للتدريب المهنى للعاملين فى مجال القوى الصحية على أكثر من صعيد يمكن تعداد بعضها على النحو التالى:

- التدريب فى مجال الرعاية الأولى، حيث حققت مصر نجاحا متواترا فى التصدى لحملات التطعيم المتعاقبة ضد كثير من أمراض الطفولة. على سبيل المثال: شلل الأطفال.. والجفاف.. ويشمل هذا التدريب طوائف متعددة من العاملين فى مجالات الخدمة الصحية بدءا بالأطباء والخدمات المعاونة وحتى العاملين فى تنظيم الحملات الإعلامية على مستوى وسائل الإعلام القومية.
- التدريب فى مجال رعاية الخصوبة.
- التدريب على التكنولوجيات الطبية المتقدمة.
- التدريب على طرق تقديم الرعاية الصحية للأعداد الكبيرة (فى المنشآت التعليمية والصناعية).

- التدريب على توفير الخدمات المعملية الأولية فى الأماكن النائية.
- التدريب على تجهيز المنشآت الصحية الأولية وتحويلها إلى مراكز للرعاية الصحاية المتقدمة.

ويمكن لبرامج التدريب أن تتم من خلال:

- إدارة تنمية القوى البشرية فى وزارة الصحة.
- المجلس القومى للسكان وهو يتبع رئاسة مجلس الوزراء.
- مركز الإعلام والتعليم والاتصال. وهو يتبع الهيئة العامة للاستعلامات.
- الجامعات المصرية.
- إدارة الخدمات الطبية بالقوات المسلحة ـ هيئة الإمداد والتموين.
- الأكاديمية الطبية العسكرية ـ الأمانة العامة لوزارة الدفاع.
- إدارة المعامل المركزية ـ وزارة الصحة.

(ب) تبادل الخبرات:

يمثل هذا المجال الفرصة الأكثر ملائمة لالتقاء التنفيذيين فى أى قطرين إسلاميين شقيقين [وبخاصة من مستوى الإدارات العليا] من أجل توفير الإجابات الميدانية على الأسئلة الباحثة عن الخبرة العملية فى تجارب حقيقية أخذت مكانها على أرض الواقع مع بعض اختلاف فى الظروف.

ويمكن للتنفيذيين المصريين أن يفيدوا من خبرات القطر الشقيق فى دراسة علاقة الطب باقتصاديات الحرب وما بعد الحرب، على سبيل المثال، وفى التطور الحديث للطب المتخصص فى مشكلة بيئية، أو فى مجالات أخرى، وفى ذات الوقت يمكن للتنفيذيين الأشقاء تبادل الخبرات مع مصر فيما يتعلق بالمجالات الآتية:

- تبادل الخبرات فى بناء وتنظيم التعليم العالى فى كليات التمريض ومدى ارتباط هذا التعليم بالتعليم الطبى عموما والتعليم العام كذلك.
- تبادل الخبرات فى تجربة التوسع فى الدراسات العليا فى الفروع الطبية المختلفة، وربط مفهوم التخصص فى الطب بالشهادات الجامعية والبحث العلمى.
- تبادل الخبرات فى اختيار القناة المثلى للدراسات العليا (سياسة الدبلوم الواحد - سياسة الدبلومين - الماجستير).
- تبادل الخبرات فى برامج التعليم الطبى المستمر وفعالياتها.
- تبادل الخبرات فى بناء أنظمة التأمين الصحى وتطويرها وتوسيع مظلتها.
- تبادل الخبرات فى إنشاء وحدات الرعاية المتكاملة فى الحضر (المراكز الصحية الحضرية) ومدى فعالياتها.
- تبادل الخبرات فى مجال التأهيل العلمى للقائمين بإدارة المستشفيات.
- تبادل الخبرات فى مجال النشر العلمى.

ويمكن لبرامج تبادل الخبرات أن تتم من خلال:

- المجلس الأعلى للجامعات - لجنة قطاع الدراسات الطبية.
- الجامعات المصرية وبخاصة الجامعات التى تكتمل فيها مجموعة كليات الطب وطب الأسنان والصيدلة والتمريض والعلاج الطبيعى.
- مركز التعليم الطبى بكلية طب قصر العينى.
- مركز التعليم الطبى المستمر - وزارة الصحة.
- إدارة التراخيص بوزارة الصحة.
- الهيئة العامة للتأمين الصحى.
- وكالة الوزارة للرعاية الصحية الأولية - وزارة الصحة.

(جـ) التعليم والتعليم العالي والدراسات العليا:

لاشك أن إتاحة الفرصة للدراسة لعدد، ولو محدود من طلاب كل قطر إسلامى فى القطر الآخر (ولو على سبيل الرمز) هو سبيل ممتاز لإقامة علائق ووشائج ممتازة ومتصلة، عبر الأجيال ، بين البيئتين الطبيتين فى كلا القطرين، حتى ولو كانت الدراسة فى مؤسسات تعليمية متناظرة تماما أو تبدو كذلك.

ومع هذا تنفرد مصر بوجود معاهد متميزة لابد من ارتيادها لأعداد غير قليلة من المشتغلين فى الحقل الطبى فى الأقطار الشقيقة، ويمكن أن يتم هذا من خلال:

- المعهد العالى للصحة العامة - جامعة الإسكندرية.
- معهد الأورام القومى - جامعة القاهرة.
- المعهد العالى للعلاج الطبيعى - جامعة القاهرة
- قسم الهندسة الطبية - هندسة القاهرة.
- معهد الطب العسكرى - الأكاديمية الطبية العسكرية (والمعاهد المناظرة).
- قسم البيئة - هندسة الزقازيق.
- دبلوم إدارة المستشفيات - جامعة القاهرة - كلية التجارة.
- دبلوم إدارة المستشفيات - أكاديمية السادات للعلوم الإدارية.
- معهد البصريات - وزارة التعليم العالى.

وهذا بالطبع بالإضافة إلى مؤسسات التعليم الطبى التقليدية فى كليات الطب وطب الأسنان ومعاهد التمريض.. على مستوى الدراسات العليا والدراسات الجامعية.

ثانيا: التعاون فى مشروعات مشتركة:

يمكن القول بأن التعاون الطبى فى مشروعات مشتركة يرتبط بصفة أساسية بمجال عمل المؤسسات الاقتصادية التى هى من قبيل «الشركة القابضة المشتركة بين القطرين الشقيقين»، بيد أن هناك عددا من المجالات الطبية التى لابد للتنمية فيها لكى تنطلق من بدايات أقوى فى مجال الموارد الصحية، وهناك عدد آخر من مشروعات تستدعى دراسات الجدوى فيها وجود أسواق أوسع فى (مجال المستهدفين بالخدمة).

ومن خلال هذين المحورين على سبيل المثال يمكن إقامة مشروعات مشتركة بين البلدين فى المجالات الآتية:

- **مصانع الأدوية:**

يتزايد الاستهلاك على الدواء مع زيادة عدد السكان من ناحية، وزيادة الرعاية الصحية من ناحية أخرى، ونظرا للاعتماد على الاستيراد يمثل تصنيع الدواء مشكلة ملحة وضرورة أولية، ويمكن القول بأن أهم عقبتين أمام مصانع الدواء الجديدة هما: التمويل الأولى، وضمان الأسواق. ومع قيام مصانع مشتركة للدواء بين الأقطار الإسلامية يمكن حل معضليات هذه المشكلة تماما وفعلاً عن تحقيق:

- أقصى قدر ممكن من الاستقلال القومى فى صناعة الدواء والخدمات الطبية.
- أقصى ربحية ممكنة.
- أقصى توفير للعملات الحرة.
- تشغيل اليد العاملة.
- توفير فرص البحث العلمى، وإعداد الكوادر فى التكنولوجيات المتقدمة.

- **تجهيزات المستشفيات:**

وينطبق عليها نفس ما أشرنا إليه فى البند السابق مع مراعاة أهمية الظروف التالية كعوامل إيجابية مساعدة:

١ - تميز العادات والتقاليد والمناخ فى القطرين عنها فى معظم البلاد القائمة بالتصنيع للتجهيزات الطبية.

٢ - توفير نوعيات مناسبة اقتصاديا.

٣ - إعادة صيانة التجهيزات القديمة بما يحقق عائد اقتصادى.

٤ - تحقيق السمة الوطنية فى المكونات العامة.

- **المصل واللقاحات:**

ولا تزال مصر إلى اليوم المصدر الأول للدول الأفريقية فى هذا المجال.

- **وسائل تنظيم الأسرة:**
- **الأجهزة التعويضية والتكميلية وخدمات المعاقين:**

هذا ويمكن تنمية وتدعيم التعاون فى المجالات الخمسة السابقة من خلال:

(١) الجمعيات الأهلية العاملة فى هذا المجال: جمعية تحسين الصحة - مؤسسة يوم المستشفيات.. إلخ.

(٢) الهلال الأحمر المصرى.

(٣) مؤسسة الأدوية، وهيئة المعمل واللقاح.

(٤) مركز التأهيل والمصانع الملحقة به بالعجوزة (إدارة الخدمات الطبية للقوات المسلحة).

(٥) مؤسسة الوفاء والأمل.

ثالثا: إنشاء هيئات مشتركة لصياغة وتفعيل التعاون الدائم:

وتتمثل أهمية هذه الهيئات (أو الأمانات الفنية الدائمة) فى أنها تجسد روح التعاون وتضمن استمراريته كما تحقق له التوصل البيروقراطى، ولابد من مراعاة بعض العوامل الضامنة لاستمرار هذه الهيئات مثل:

- ذاتية التمويل إلى أقصى حد ممكن.
- وضوح الغاية وعدم ارتباطها بالشعارات النظرية.
- دورية النشاط واللقاءات.
- حيوية الهدف أو مجموعة الأهداف.
- استقلال الفكرة عن الارتباط بأية متغيرات سياسية أو سلبية.

وفى هذا الصدد يمكن إنشاء عدد من المؤسسات العلمية التى لا تزال الأقطار الإسلامية فى حاجة إليهما، وترتفع قيمة هذه المؤسسات إذا ما ارتبطت بحاجة ملحة لم تفلح الجهود الوطنية فى تحقيقها على نحو أمثل بالإمكانات المنفردة، وعلى سبيل المثال يمكن إنشاء هيئات أو مؤسسات تعمل فى المجالات الآتية:

- **معهد للدراسات المتقدمة فى مجال الصحة:**

على نمط المعاهد الدولية التى تتولى تنظيم ندوات وحلقات بحث وورش عمل مصغرة للبحث فى مشكلات المستقبل، تدعو إليها الأساتذة العالميين وتتولى وضع تقارير عملية ودقيقة، وصياغة تصورات خاصة ووسائل تنفيذها.

❑ برامج التدريب:

بحيث تتولى الأمانة الموجودة فى أحد القطرية تعريب البحوث المقدمة للمؤتمرات والدوريات والمجلات،وتتولى الأمانة الموجودة فى القطر الآخر تعريب الكتب والمراجع .. وهكذا بالتبادل.

❑ برامج الببليوجرافيا الطبية العربية:

وذلك لإعداد قاعدة البيانات الطبية العربية ، وقد أسهم كاتب هذه السطور فى هذا المجال فى إصدار الببليوجرافيا القومية للطب المصرى عن الأكاديمية المصرية العسكرية، ولايزال المجال خصباً لإعداد ونشر كثير من هذه الببليوجرافيات فى كافة التخصصات الطبية، وهى كفيلة بأن تطلع اطبائنا فى الأوطان المختلفة على الجهود التى بذلها أقرانهم فى الموضوع نفسه بدلا من تكرار الجهود دون جدوى.

وفى هذا المجال يجدر بى أن أشير إلى أن الببليوجرافيات العالمية لا تعنى بمثل منطقيا وبالبحوث التى نشر فيها وهكذا نصبح نحن أولى الناس بعملنا وفهرسته وتكشيفه وإتاحته للأشقاء فى الأوطان الإسلامية.

❑ برامج النشر العلمى المشترك:

من أجل إصدار دورية عربية شهرية تصدر بانتظام ومع أول كل شهر وتوزع فى جميع أنجاء العالم.

- **مؤسسة تعليمية حرة غير مقيدة المكان (جامعة مفتوحة):**

تتولى تنظيم برامج التعليم الطبى المستمر المشار إليها من قبل.

- **اتحاد لمؤسسات التعليم الطبى:**

يتـولى تنسـيق التـعـاون ورسم الآفـاق الأرحب للتـعـاون الدائم والـدورى بين هذه المؤسسات،وتبادل الخبرات التعليمية والطبية.

- **مؤسسة مشتركة للطب الاستراتيجي:**

تحـقـيق التكامل المنشـود فى مـجـال الخدمـات الطبيـة العـسكرية تحـسبـا لأوقـات الأزمات.

كتب للمؤلف

أعمال موسوعية

- القاموس الطبي نوبل [بالاشتراك مع د. محمد عبد اللطيف] ـ ١٩٩٨
- الببليوجرافيا القومية للطب المصري (٨ أجزاء) ـ ١٩٨٩ ـ ١٩٩١
- دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبي الحديث ـ ١٩٨٧
- مجلة الثقافة [١٩٣٩ ـ ١٩٥٢]: تعريف وفهرسة وتوثيق ـ ١٩٩٣
- التشكيلات الوزارية في عهد الثورة ـ ١٩٨٦
- الوزراء (طبعتان) ـ ١٩٩٥، ١٩٩٧، ٢٠٠١
- المحافظون (طبعتان) ـ ١٩٩٥
- البنيان الوزاري في مصر [١٨٧٨ ـ ١٩٩٦] (طبعتان) ـ ١٩٩٦، ٢٠٠٠
- النخبة المصرية الحاكمة [١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠] ـ ٢٠٠١
- قادة الشرطة في السياسة المصرية [١٩٥٢ ـ ٢٠٠٢] ـ ٢٠٠٣

في التراجم

- الدكتور محمد كامل حسين (الحائز علي جائزة مجمع اللغة العربية) ١٩٧٨
- مشرّفة بين الذرة والذروة (الحائز علي جائزة الدولة التشجيعية)(طبعتان) ١٩٨٠
- الدكتور أحمد زكي ـ ١٩٨٤
- مايسترو العبور المشير أحمد اسماعيل ـ ١٩٨٤
- سماء العسكرية المصرية الشهيد عبد المنعم رياض ـ ١٩٨٤
- الدكتور علي باشا إبراهيم ـ ١٩٨٥
- الدكتور سليمان عزمي باشا ـ ١٩٨٦
- الدكتور نجيب محفوظ باشا ـ ١٩٨٦
- توفيق الحكيم من العدالة إلي التعادلية ـ ١٩٨٨
- اسماعيل صدقي باشا ـ ١٩٩٨
- سيد مرعي ـ ١٩٩٩
- يرحمهم الله ـ ١٩٨٤
- مصريون معاصرون ـ ١٩٩٩

دراسات نقدية لكتب المذكرات

- فن كتابة التجربة الذاتية : مذكرات الهواة والمحترفين ـ ١٩٩٧
- مذكرات وزراء الثورة ـ ١٩٩٤
- مذكرات المرأة المصرية ـ ١٩٩٥

- • نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار(طبعتان) ـ ١٩٩٦ ، ٢٠٠٣
- محاكمة ثورة يوليو: مذكرات رجال القانون والقضاء ـ ١٩٩٩
- الأمن القومي لمصر: مذكرات قادة المخابرات والمباحث ـ ١٩٩٩
- من أجل السلام: مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية ـ ١٩٩٩
- الطريق إلي النكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ ـ ٢٠٠٠
- النصر الوحيد : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣ ـ ٢٠٠٠
- في أعقاب النكسة : مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٦٧ – ١٩٧٢) ـ ٢٠٠٠
- علي مشارف الثورة : مذكرات وزراء الملكية (١٩٤٩ – ١٩٥٢) ـ ٢٠٠١
- في خدمة السلطة : مذكرات الصحفيين ـ ٢٠٠١
- تكوين العقل العربي : مذكرات المفكرين والتربويين ـ ٢٠٠٣

❏ دراسات سياسية

- الفلسطينيون ينتصرون آخيراً ـ ٢٠٠٣
- المسلمون والأمريكان والعولمة ـ ٢٠٠٣
- مستقبل الجامعة المصرية ـ ٢٠٠٠
- القاهرة تبحث عن مستقبلها ـ ٢٠٠٠
- مستقبلنا في مصر: دراسات في الاعلام والبيئة والتنمية (طبعتان) ـ ١٩٨٥
- الصحة والطب والعلاج في مصر ـ ١٩٨٧
- آراء حرة في التربية والتعليم ـ ٢٠٠١
- التنمية الممكنة : أفكار لمصر من أجل الازدهار ـ ٢٠٠١

❏ دراسات

- كلمات القرآن التي لانستعملها (طبعتان) ـ ١٩٨٤
- أدباء التنوير والتاريخ الإسلامي(طبعتان) ـ ١٩٩٠
- من بين سطور حياتنا الأدبية ـ ١٩٨٤

❏ وجدانيات

- أوراق القلب [رسائل وجدانية] ـ ١٩٩٤
- أوهام الحب [دراسة في عواطف الأنثي] ـ ١٩٩٩

❏ من أدب الرحلات

- رحلات شاب مسلم(طبعتان) ـ ١٩٨٩
- شمس الأصيل في أمريكا ـ ١٩٩٤

❏ في طب القلب

- أمراض القلب الخلقية الصمامية ـ ٢٠٠١
- أمراض القلب الخلقية غير الصمامية ـ ٢٠٠١

المحتويات

رقم الإيـــداع	٢٠٠٣ / ٢٤٧٨
الترقيم الـدولى	977-5684-66-8-ISBN

